من وحي الأربعين

٤٠

طارق السكري

دار سمة للنشر الإلكتروني

طارق السكري

اسم الكتاب: من وحي الأربعين
اسم الكاتب: طارق السكري
نوع العمل: قصص
الرقم الدولي EBIN: 16-1-192-221008
الناشر: دار بسمة للنشر الإلكتروني
الطبعة الأولى: 2022م / 1444هـ

دار بسمة للنشر الإلكتروني

00212771814934
دار بسمة للنشر الإلكتروني (المغرب)
Basma24design@gmail.com
المملكة المغربية

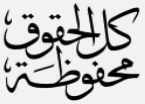

دار بسمة للنشر الإلكتروني تُقدم جميع خدمات النشر، ولا تتحمّل أي مسؤولية تجاه المحتوى، إذ إن الكاتب وحده هو المسؤول عن نتاج فكره.. كما لا يجوز بأيّ صورة نشر أو إعادة طبع أي جزء من هَذَا الكتاب أو اختزان مادته بطريقة الاسترجاع، أو نقله عَلَى أي نحو كَانَ، أو بأيّ طريقة سواء كَانَت إلكترونية أو بالتصوير أو خلاف ذلك، إلاّ بموافقة خطية من الناشر أو المؤلف. ©

من وحي الأربعين

قصص

طارق السكري

دار البشمة للنشر الإلكتروني

بسم الله الرحمن الرحيم

استهلال

اللهم إنك جعلتَ الموسيقى فنَّ العقلاء، ولغة الحكماء، وجعلتَ لها من التأثير والتنوير ما يزيح عن الفطرة الشرور، ويضيف إليها البهجة والسرور. وجعلتَ لها من الروح ما يهدي إلى الخلق الرفيع، والإحساس الراقي. وجعلتها من النفس كالرحيق من الزهرة، والسحابة من الربيع! سبحانك ربنا جعلت الكون البديع، والنغمة الشجية الحلوة، والكلمة المؤثرة، والمنظر الخلاق الجميل!

سبحانك ربنا جميلٌ تحب الجمال! لا تخلو الجبال من شبّابة راعي، ولا البراري من ربابة حادي، ولا الأنهار من ناي سائح!

النغمة في زقزقة العصافير بالأسحار، وفي عندلة البلابل على الأشجار، وفي إرنان الغصون، وسجعة الحمام الهتون.

اللهم فلا تجعلها صارفةً لنا عن ذكرك، ولا شاغلةً عن طاعتك، ولا موجبةً لسخطك.

واجعلها بستانًا من بساتين الروح، وفاكهةً من فاكهة الوجد، ومنبرا من منابر الحقّ والخير والجمال.

الدّمام

29 نوفمبر 2012

صباحيَّات

(1)

وقفتُ على غصنٍ من الليل رطيبٍ وناديتُ بأعلى صوتي: يا قدُّوس!

مـذنبٌ يا حـيُّ! انقطـع النصـير إلا منـك، والسـبيل إلا إليـك، فمـن لي غيرك يا قدُّوس؟!

احترق القلم بين أصابعي.. جفَّ ريقُ مدادي.. تعبت أجنحة خيالي وأنا يا رب أركـض فـوق هـذه الفيـافي اللامتناهيـة مـن الأوراق! ناحـت روح الأشـجار الـتي قُطعت منهـا، وبكـى الجـذر في أعمـاق حـروفي، وتكـوَّرت بقايا الأشعة التي فيها ثمّ انزوت عني يأسًا من ظلماتي!

الأوراق تخفـي الكثـير مـن ألم الأشـجار؛ ولـذلك تنـزف روحـي الخضـراء كلمـا وقفـت في وجهـي ورقـةٌ بيضـاء! كأنهـا شـحوبُ وجـهٍ راكـضٍ بـين

صفحةٍ وصفحة منذ مئات السنين؛ يصل العوالم بالعوالم؛ ويركض ركض الوحش في البرّيّة، حتى اشتعل الرأس شيبا، والأوراق رمادا.

وأنا على مشارف الخمسين من العمر يا ربُّ.. صفرًا من كل شيءٍ سواكْ. عدمًا سواك.. رمادًا سواك!

حاشايَ أن أتساءل لماذا أنا؟ لماذا كيمنيٍّ تتشبَّث بيَ أطياف المطارات، وتسكن أقدامي أمزجةُ الرّيح؟.. لماذا أنا؟ هل تحتاج نفسيَ الملهمة كلّ هذا التّجديف على امتداد التجارب؛ كي تتداعى عنها القشور، ويبرز منها الجوهر لمَّاعًا حادًّا، فترتفع عنها الحُجب، فتنطق بالحقيقة، ثمّ يمطرها وابل من الكرامات الخارقة؟ فيحين عندها موسم الهجرة إلى الوطن، فننعم فيه بسجدة متلفّعة بالدموع والعرفان؟ هل عليَّ أن لا أخلع جبَّة الدّرويش العفنة هذه أبدًا؟!

اللهم لا يمرُّ يومٌ دون رفقة كتاب، خلوًا من الأصحاب، رهين الاغتراب.

اللهم غفرانك عظُم المطلوبُ وقلَّ المساعدْ.. اللهمَّ لقد توسَّطتْ قلبَ اليمنِ النِّصالُ وعشعشتِ المكائدْ.. اللهم غفرانك تخلّى الصديق، وخان الرّفيق، وليس سواك مطَّلعٌ وشاهدْ.

نعم، كنت واقفًا على غصن من الليل، فسمعتُ صوتًا يغمره اليقين؛ صوتًا في الظلام يشعُّ، وفي القفر يُعشبُ، وفي الروح يُمطر، وفي مرايا الرحيل وجهٌ مقمرٌ بالحنين:

الحقيقةُ وحدها تدومْ.. الزَّيفُ لن يدومْ.. الزَّيفُ لن يدومْ.

ماليزيا

1 فبراير 2022

(2)

صباح الخير أيَّتها الحياة.. يا ينبوع الإلهام.. ويا قدر الأقلام.

صباح تتنفس الكائنات ضجيجَهُ الدَّافئ، وتكتسي الألوانَ الزاهيةَ الأشجارُ وأرياشُ العصافير.. وترجم أحاسيسَ النشوةِ عيونٌ عطشى للقاء.

النهرُ في غمغماته كأنه طفل على فراشه يتظاهر بعدم الرغبة بالاستيقاظ، وفي جريانه كأنه أطفال الحيِّ يعقدون القرعة ويتسابقون.

على النّافذة ضبابٌ كثيف يخفي ألف حكاية.. أو أنه آثار أقدام سفر! أو بقعٌ لتآويهِ ناي، أو حائطُ مبكى لليلةٍ ساهدٌ فيها المطر. أو لربّما يحكي الضبابُ على النافذة قصةَ نهايةِ حربٍ جرت ليلًا بين الغيوم والنجوم؛ مضت بين كرٍّ وفرٍّ.. بين اختفاء وظهور.. بين غموض وجلاء، وَقَّعتْ فيه أخيرًا النجومُ على خسارتها؛ وانسحبت بأذيال الخيبة وراء الأفق؛ حيث العيونُ التي أجهز عليها الظلام.

النُّجومُ صوتُ اليقظة في ضمير الليل؛ مستمسكًا ببقايا النور الإنساني. وبقايا من قصاصاتِ ورقة بيضاء للمحبّةِ؛ مزَّقتها ذات مساء شياطينُ الظلام.

النجـومُ حبـاتُ لؤلـؤ مطمـورة تحـت الأمـواج الليليـة المتلاطمـة، تغـري عشَّاق الحكمة بالغوص والإنقاذ، لتحقِّق ذاتها من خلال القلم.

هـا هـو الصـباح ترتفـع عواميـده، كمـا يرتفـع القفـصُ الصّـدريّ للشـوارع والأبراج والعمارات الشاهقة في ماليزيا. ترفع أياديه الستارَ عن أطفال تحت الثلج أهلكهم الزمهريرُ القارسُ؛ وأطفالٌ في الجهة الأخرى تحت نيران القصف.. أشلاء تحت الأنقاض.. نصف أحياء.. نصف أموات!

يـدفع الصـباح بعجلـة الحيـاة لشـداة الحرّيّـة لحـثّ السـير بـلا تبـاطؤ؛ نحـو القراءة والتغيير، فالنصر قريب لا محالة!

ملائكة توقّع على نهاية الدّوام.. تضرب بأجنحتها إلى السماء، وملائكة تبدأ المناوبة على الأرض.. حيث القلوبُ المتعلقة دوما بحبل الله المتين.

على الجميع إذن صباح الخير.

ماليزيا

29 يناير 2022

(3)

بسم الله يا اَللّه أفتتح الحياة؛ باسمك اللهم نموت ونحيا؛ صباح الخير؛ كيف كانت ليلتك؟ تقول الجبال: صمودٌ بالله منذ الأزل؛ ترتطم فيَّ أصداءُ المناجين؛ وتتردد في أعماقي وشوشاتُ المصلّين. شاخصة إلى الله؛ ضارعة إليه مما يفعل المتجبرون! أودُّ لو أني أتداعى على فلسفاتهم الوجودية؛ التي جعلت الإنسان عبدًا لشهواته؛ فيوحي الله إليَّ: أنِ اصبري؛ سنستدرجهم من حيث لا يعلمون.

تقول البحار: تسابيح لله منذ الأزل؛ تنتقل السحاب من موطن إلى موطن؛ فيذرعها الحنين؛ فتغرقني دموعًا من الحنين والأمل؛ وتنتابني قشعريرة إراقة دماء المضطهدين؛ تتدفَّق إلى أعماقي؛ فأثور! فيوحي الله إليَّ أنِ اصبري؛ فلكلِّ أجلٍ كتاب!

تقول الأشجار: أنا لست غريبة عن أخي الإنسان؛ ولكنه لم يدّخر وسعًا في تحطيمي! ألواني وأنغام طيوري تدعوه إلى الجمال والرَّحمة؛ ويأبى إلا أن يكون منشارًا وحديدا. فمن منَّا أحقُّ بأن يطلق عليه: إنسان؟! فيوحي الله إليَّ: أنِ اصبري؛ فأنا العليم الخبير.

20 يناير 2022

أثَرُ الفراشة

كانت مشرقة كزهرة.. تشعر أنها كأنما خلقت من جديد.. أنها خرجت صباحا من منزلها وهي تتقمَّص روح حمامة.. تشرئب بعنقها إلى السحاب كما لو أنها على صفحة نهر تمد يدها لتشرب.. إنها تمرح.. إنها تركض على استحياء.. شعرت بها جدًّا.. كنت سعيدا..

تمنيت لو أني أترك لها مكاني في الحديقة.. لتستولي وحدها على كل الزهور.. لترقص حتى الثمالة! فليس مهمًا أن أقعد لكتابة قصيدة. ما الذي يهيج الأشجان في القصيدة؟ أنكون قد أشبعنا حاجتنا الجمالية عندما نستعرض عضلاتنا في الإيقاع والصور؟ دع القصيدة وانظر لما هو أرق وألطف.

لكني وأعوذ بالله من شعوري؛ شعرت كما لو أنها تعاني من شيء ما! لا أدري لِمَ انتابني هذا الشعور الغريب؟

أتقسو الحياة على هكذا فراشة؟ لماذا تقسو الحياة؟ اِمرحي أيتها الطفلة.. جعلتُ فداكِ سابقي الريح.

لقد صارت أجهزة استشعاراتي أذكى مما مضى! كلما خرجت من البيت انكشفت لي القلوب كما لو كانت كتابا مفتوحًا! ليت في مقدوري أن أكتب على صفحاتها الأمل والنور.. السكينة والسلام وأمحو كل المحو البؤس والشقاء.

أتخيّلها بين عيني الآن! ليس من يفهمها غير هذا الذي أوقف كل شيء وظل يتأملها! قلبي ينكمش في خجل.. كقرطاس في قبضة طفل غضوب. عندما قلت لها: العبي.. خرجت الكلمة من فمي ثقيلة كليالي الصيف.

- ولكن لا أحد يريدني.. الكل مشغول عني.. لأني فراشة مختلفة.. أنا طويلة كأمنية وألوان أجنحتي مختلفة كلحنٍ عبقريّ!

خفتُ أن أتكلم.. ترددتُ كجبان.. هل أقول لها: أنت تخطفين الأنفاس يا لَجمالك؟! ربما ستظنني ذئبًا بشريًا.. يسحق بلا ضمير.. ويدمر في

صمت.. ويغصب بلا أسف! لاااا وألف لا لن أتكلم.. أموت ولا يظن أحد بي هذا!

قلت لها: جميل.

شعرت بأنها تطمع بالمزيد.. لماذا استقرت على كتفي؟ لماذا أنا دون كل من هنا؟ نعم لماذا أنا؟

ألقت عليّ نظرة شعرت بأن قلبي انخلع لها: يظنونني لست بمستواهم. قالت وقد خفت ضوء أجنحتها.

هبّت ريح خفيفة تحركت لها أغصان شجرة بالقرب منّا.. كانت أشعة الشمس تتساقط حانيةً على وجوهنا من خلل الأوراق. وعلى جانب من الحديقة تلٌّ أخضر يصلح لأن يكون مسرحًا للغناء.. يطوّقه جدول صغير ونوارس كثيرة. كأنه قارب شوق.

أيتها الفراشة! لقد نزلت عميقًا من أحزاني. فلم يعد بوسعي التخلي عنك!

ولكن كيف؟ لا لا؛ سأتركها لمصيرها المقدر لها.. كل الناس يعانون.. نحن بلا وطن.. علينا أن نتكيف بالأوضاع.. كل ميسر لما خلق له.. ما شأني أنا؟ وهل خلوت أنا من الحزن؟

- أنت مجرم. أحسستها تقذف بهذه الكلمة في وجهي.
- لا لست مجرمًا. ولكنني أسير المجاملات والعادات الزائفة.

هل على الإنسان أن يتخلى عن إنسانيته؟

لو أني مددت يدي ودفعتها لتطير هل أكون مجرمًا؟

خفت عليها.. أشفقت عليها.. لو أني أطلت الحديث إليها ربما سيرتاب الناس.

انصرف قلبي بكُلِّيَّته إليها..

حضنتها حتى غامت الشمس ولم يعد في الحديقة أحد.

2022 / 7 /27

من وحي الصورة: النعامة

خرجت معها بالأمس إلى حديقة بعيدة.. حتى إذا بلغت الساعة التاسعة مساء قالت ببسمة مبتلّة: أرأيت؟ لم يتصل بي أحد!

التقينا قديمًا وتعارفنا في إحدى الورش التدريبية.. فتاة في العشرين.. جميلة غضة الشفاه.. طويلة.. تحب اللعب كالأطفال والجري والمسابقة.. تتوهج حياة. أسرّت إليّ بكل تفاصيل حياتها.. منذ وعت على الدنيا حتى زواجها.

ونحن على العشب أخذتني الرّقّة لحالها! لا أدري! تذكّرت طائرًا يدعى النعامة.. قيل إن النعامة تدفن رأسها في الأرض إذا ما داهمها خطر!

لماذا يدفن الجميع عن الفتاة رأسه؟ لماذا لم يستمع الجميع إلى صراخ أعماقها؟ لماذا لم يدركوا سرّ ضحكها الهستيري؟ ألا ينم الضحك في كثير من الأحيان عن نفس قلقة وخائفة تود لو تكسب احترام الجميع وعطفه؟

لماذا يدفن زوجها في البيت رأسه، فيستخدم يده في قضاء شهوته، ويتركها بالقرب منه تسمع لهاثه على السرير! ألم يجد في هذا الجمال الرّبّاني بديلًا عن مشاهدة "التنفيلكس" طَوال اليوم؟ إذا كانت لا تحب مشاهدة الأفلام.. إذا كانت تحب الخروج واللعب وتحب الثرثرة، فلماذا يطلب منها أن تدفن رأسها فيما لا ترغب به؟

أيها الطائر الذي يدعى النعامة!

أيتها البقية من سلالة الدينصورات.. لماذا تدفنين رأسك في الأرض؟ قالوا إنك جبانة! وفي أحسن الأحوال قالوا في الكتب إنك غبيّة!

إن من البشر من شابهت طبائعهم طبائعك.. ووافقت غرائزهم غرائزك!

من الملوم؟

هل الأب المغترب في دولة بعيدة قد دفن رأسه في مشاغل الحياة عن ابنته؟

هل العائلة التي دفنت رأسها فلم تلتفت إلى أنينها وهي تقول لهم باكية: أحس ألما عنيفًا في بطني؟

هل الزوج الذي تغيّر حاله عليها يوم علم أنها قد أسقطت الجنين؟

أم هي التي دفنت رأسها، فلم تبح لأهلها بسر زوجها ودردشاته مع النساء؟

لقد دفن الجميع رأسه ما عداي.. أنا.. أنا الذي اكتويت بالفتاة عشقا مصحوبا برأفة وشفقة! واكتوت بي هياما وسوبرمانًا أو مخلِّصا! ها أنا أنشر ما طوته الأيام منذ سنين، وأعلن عن حالة إنسانية مغلفة بالظلام والعار.

لكني.. أنا أيضًا كنتُ قد دفنتُ رأسي.. فلا أبوح باسم تلك الفتاة.

ماليزيا

14 أغسطس 2022

مناجاة قمر..!!

أيُّها القمر البائس الحزين! سعةً بك يا "قَيْدَ النَّواظر".

تنتظر حلول المساء.. ليبدأ مهرجان الجمال الخلاق. فإليك تتشوف النواظر كما تتشوف الشعوب إلى القادة الأحرار.. يجلون عن أوطانهم حنادس الظلام.. وينفضون عن حدودها قراع الكتائب السواد.. ويطفئون على عتباتها هواجسَ الخوف واليأس.

كما يحافظون على تلك الشعلة في القلوب.. شعلة الأمل. تماما كأنت.. نصَّبتَ نفسك شعلةً في الظلام.. كأنك من علٍ تنادي البشرية فتقول: لا تلعنوا الظلام وأوقدوا شمعة.

لكنك عاشق يا قمر!

ما العلاقة بينك وبين أحاسيسنا بالحب؟ بالحلمِ؟ بالسهر؟ يا للحب! وكأن الحب وهو الغائر في عوالم الشعور لا تدركه الحواس.. جعل الله له مثالًا يقاس عليه في السماء.. فعند أول تسجيلك للدخول.. إذا وجه الحبيبة يلوح على محياك. وكأن الظلمة التي تحيط بالآفاق هي ذات الظلمة التي تحيط بأقطار كل نفس، فلا يكشف عن الآفاق الظلمة إلا نورك وبهاك.. ولا يجلّي عن النفس الكآبة والشعور بالاختناق إلا وجه حبيب يضاهي سناكْ.

فهذا ابن زيدون يغني ولّادة:

يا أخا البدر سناءً وسَنَا .. رَحِمَ اللهُ زمانًا أطلعكْ

تعلم ونعلم أن الشعراء قالوا فيك الكثير.

ولقد قلتُ فيك قديمًا ذات مساءٍ صَبِيّ:

اِغْتابني القمرْ

وقال للنُّجومْ

سمعتهُ يغنّي

ويَجمعُ الشجرْ

والنارَ

والمطرْ

من صوتهِ ابْتدَا

طريقَهُ الطويلْ

ملامحُ الربيعْ.. ومسحةُ الأصيلْ

وقلبُهُ حجرْ

رأيتهُ في الليلِ

يُوقدُ الحطبْ

أنينُ من في الكوخِ.. حولَهُ شُهُبْ

جيرانُهُ هَوَامْ

وحلمهُ سرابْ

والدهرُ والغرامْ

كأنهُ جِناحْ.. منقارُهُ القدر
وشِعرهُ رماحْ.. وصوتهُ فِكَرْ

أيّها الصعلوك العاشق!

كلنا ننتظر أن تكون بخير.. أن تكون مكتملًا لا غيومَ حولك!

كي تكون عوضًا للمحبين عن اللقاء.. أولئك المنقطعين وراء السياج والحدود البعيدة، ففيك يلتقي النَّجِيُّ نَجِيَّه.. فهذا الغائب يرى فيك وطنه.. وذاك الجائع يراك رغيف خبز.. والفيلسوف يراك صفحة يخاطب بها الوجود.. والوطني المثقف يرى فيك المستقبل الجديد.

أيها الوضوح الغامض..

كن حيث أنت من الألقْ.. أوْ لا؟ فلنا في الأرض دَلٌّ وفتون!

كتلك التي رأيتها في المساء تجرّ ذيل الخيلاء والتّيه.. عيناها حدائق عنب.. ووجها من الأنوثة كأنه شهقة وتر.. تنشر البهجة ببسمتها.. وتضع في حقيبتها قصيدتي وقلبي أيضًا.. وهي تردد:

محظوظةٌ

تلك التي تعود في المساءْ

تَحُفُّهَا قصيدةٌ لشاعرْ

تُحِبُّها السَّماءْ

تُلقي عليها الأمنَ والسَّلام والصَّفاءْ.

كتلك التي قال فيها المتنبي:

واستقبلتْ قمرَ السّماءِ بوجهها.. فأرتنيَ القَمَريْنِ في وقتٍ مَعَا

ماليزيا

2022 / 8 / 28

أين أنا؟

طلب مني مكتب التكافل الاجتماعي أن أجري حوارًا مع أحد المرضى في قسم جراحة المخ والأعصاب حتى أقدم تقريرًا عن الحالة.. المكان في الصباح هادئ للغاية.. ذهبت إلى الغرفة بعيدًا باتجاه النوافير.. رفعت السّماعة، حاولت أن أبدو ودودًا: السلام عليكم معكم الكاتب (....) من مكتب التكافل الاجتماعي.

صمت.

تابعت: كيف حالك؟ أين أنت الآن؟

– أوه، أين أنا الآن؟ نعم نعم أين أنا لا داعي للتفكير طويلًا.. بالطبع سأجيب ولم لا أجيب؟ أصلًا السؤال في حد ذاته يستحق التقدير..

أنت تعرف لماذا؟ من يسأل عمَّن في هذا الزمن.. هذا الزمنِ المثقف جدًا؟ بالمناسبة أود أن أقول لك شيئًا طالما وقد ذكرنا كلمة "مثقف"؟ في السابق كان الإنتاج المعرفي يسبق كلمة مثقف أما اليوم أصبح المثقف يتقدم على الإنتاج المعرفي.. كانت الفلسفة هي التي تقدم المثقف للناس أما اليوم تغيرت الظروف! حتى لقد صار الحذاء أغلى من المثقف! إييه! لقد كنت ابن هذا الوسط الثقافي فجدي كان فقيه القرية.. ورثت عنه الشعر. للأسف نحن في الزمن اللاشعر، لو ورثت عنه شيئا آخر.. لكن كل شيء بقدر. كان أحدهم البارحة يحدثني عن هيكل الأمّة الحضاري منفعلًا كما لو كنت أبا جهل! تصوّر! إننا لا نملك شبرًا من الأرض التي نحن عليها! ويحدثنا عن الهيكل الحضاري للأمة! فماذا يريد مني؟ لقد نغَّص عليَّ دردشةً كنت فيها كأنني الروح الطليق.. دردشة ناعمة ليّنةً كحرف اللام.. دافئةً كسيارة حديثة. وهل تستوي الدردشات يا صديقي؟ شتَّان بين دردشةٍ ودردشة بين صوت الضرب على التَّنك، وصوت الناي يتخلله السحاب. بين صوت تسمعه مع غباشش الضوء وعند الظهيرة وعند السفر وعند اللقاء بالأحباب وعندما يقبل المساء، بين صوت النسيم الرقيق الملائكي وبين صوت متكلف آخر عمره يتصابى، يحاول أن يقنع العالم بأنه لا يزال شابًا!

بين صوت ولَّى وغبر، وبين صوت لا يزال بيننا يقول: نعم؛ أنا أسمعكم أنا أشرب القهوة معكم؛ أعبِّر عنكم أنتم.

تبا له! لقد ذكّرني بقصيدة للبردوني بعنوان " لصّ في منزل شاعر " لا لا بل أعانهمُ الله.. لا هياكل ولا سياكل.. تمنيت لو كان الأمر بيدي لسلطت عليهم كلابا تنهش أفكارهم وتريحهم من العناء. أوه تذكّرت.. إني هنا منذ ثلاث ليالٍ فقط.. لكن قبل أن أجيب على سؤالك "أين أنت الآن"؟ يجدر بي أولًا شكرك. عفوك.. لقد لاحظت خطأ مطبعيًا أردت أن أقول: عليّ أولا شكرك.. أوه. ها أنا وقعت في الخطأ ثانية. ولكن ما الفرق بين الكلمتين؟ أردت أن أشكرك أو أردت شكرك كلاهما بمعنى واحد.. فلمِ هذا التفاصح؟ عفوك؛ كثيرا ما يصيب الكتّاب شيء من هذه الحساسية المفرطة تجاه اللغة حتى إني لأشعر في هذه المرحلة من العمر أن ظلال الكلمات أمست تخترقني كأشعة الليزر.

إن القلم يرتعش في يدي؛ فرائحة الدِّيتول تسكرني.

– ألو.. المعذرة ها قد عاد الاتصال.. أين أنت الآن؟

– دعك مني الآن.. وانظر، انظر لمشية تلك الممرضة! هل تسمع؟ منذ البارحة وأنا أشعر أن عظامي كما لو أنها تقرقع تحت شجرة ضخمة! يبدو أن العقاقير لم تعد تجدي.

سيدي بصراحة لا أريد أن أثقل عليك من أين جاءت كلمة عقاقير؟

كان بودّي لو اعترضت فقلت: ما شأني أنا بالنخب المثقفة والنخب الوطنية؟! إنما أسألك: أين أنت الآن؟ مسكين هذا الشيخ! لقد شعرت بعدم توازنه منذ أول اتصال.. لقد تألمت وغصت عميقًا في كلماته، قالوا لي: أن صحته تدهورت منذ أحب! أيمكن للحب أن يفعل بالإنسان هذا؟ شيء لا يدخل العقل.. هل نحن في زمن مجنون ليلى؟ هل يمكن أن نجد نوعا من هذا البشر لمًّا ينقرض بعد؟ ولم لا؟ أليس القلب قطعة من الشجن؟ لا يمكننا بأي حال أن ننكر وجود العاطفة، فالعاطفة حتى في الحيوان. ألا تهدل الحمامة حنينا لموطنها؟ أخذتني قصته وتعجّبت.. لابد أنه يملك قلبا نادرًا.. لابد وأن في النساء عكس ذلك. حين قرأت آخر دردشاته عظم في عيني.. أحسست أني أعرفه من قبل..

على مهَلٍ دموعكِ لا تُدارى
وكفُّكِ وهْو يَهْمي جُلُّنارا

وقلبك راعشًا قد هزَّ قلبي
وراء السَّتْر.. من قلقٍ وثارا

وما يدرون والأفكارُ شتَّى
بأنَّا قد توحَّدنا مِرارا

دموعكِ وهي تهمي في فؤادي
تسيلُ.. وأدمعي اختلطا شرارا

رجفتِ فكنتُ أسمع في خيالي
حفيفًا رفَّ في روحي وطارا

يا لله! ما هذه الرقّة؟

يا ترى من هذه التي تيَّمت قلبه وشغفت روحه؟ لو لم يبلغ عنه أهلُه لهام في البراري على وجهه كالمجنون!

في الحقيقة لقد شعرت بطيبة قلبه.. فسمحت لنفسي أن تسترسل معه كما سمحت لنبرات صوته أن تتغلغل في أعماقي حتى لقد تخيلت نفسي هو وهو أنا.. ها أنا أستقبل من الكون رسائل على هيئة ذبذبات موسيقية تتوهج بألوان بنفسجية أوه ها هي حرارة الجوال ترتفع! ملاءة بيضاء بعنق مكشوف.. وأغطية بيضاء، ولاصق على المعصم!! يا للهول! لا لا أنا بخير نعم سأقنعني بذلك.. وإنما أنا كعادة الشعراء الحمقى أتأثر بسرعة.. نعم يمكن أن نعدّل الصيغة لقد كدت وإياه أن نصبح واحدًا.. نعم هذا أفضل.. هو مجرد اتصال وبعدها كلٌّ يمضي إلى سبيله.. كنت قرأت منذ زمن عن شيءٍ في علم النفس يُدعى التّخاطر وهو التراسل عبر الأفكار دون استخدام وسيط حسي.. يعني دون كلام!! إذن لقد بدأت أفهم.. ألهذه الدرجة بلغ تأثيره بي؟ كانت أجهزة التَّخاطر بيننا تعمل بسرعة!

قضينا ساعة في صمت! قال لي: ولكنهم كعربيات البطاطا يملؤون الشوارع!

– من؟

– أصدقاؤك.

أثارت غضبي هذه العبارة " ولكنهم كعربيات البطاطا يملؤون الشوارع " ألهذه الدرجة تبلغ به الوقاحة فيشتم النخب الوطنية.. النخب المثقفة النزيهة؟!

قال بلطف: ولكن بالمناسبة أليست العقاقير مأخوذة من عقار الخمر بل أظنها من المرأة العاقر! مرة رأيت كلبًا يركض خائفًا ووراءه مثقف مسعور!

ربما أخذوا المعنى النفسي للكلمتين " عُقار وعاقر" واستخرجوا معنى جديدًا فأطلقوه على الأدوية مجازًا! لكن هل الأدوية حقا تملك أن تسبر أغوار الألم؟

صمت برهة.. باغتني السؤال. لكنه استدرك:

لا يا صديقي.. كل ما في الأمر أن هذه العقاقير بواسطة حبيبات صغيرة تجري في سائلٍ أصفر تنطلق باتجاه الفص الأمامي من الدماغ، تحرر العقل من الرقيب! نحن إذن أشخاص مستعمرون.. أشخاص آخرون عادات وتقاليد ومعلومات جاهزة.. إننا أبعد شيء في الدنيا عن ذواتنا الحقيقية. إن الألم الذي يعترينا في كثير من الأحيان.. بل إن الألم لا يغادرنا، فقوانين الفطرة تنتقم لنفسها. إن الألم شيء مستقر غير

متحوّل.. يغزونا من ذواتنا الحقيقية القاطنة هناك في البعيد.. خارج إرادتنا يصل الألم بالتخاطر والحدس أثناء النوم إلى هذه الهياكل الصورية المضحكة! التي هي نحن الآن! بل لقد اختلطت اللذة في الجهاز العصبي بالألم.. أصبحا شيئا واحدًا!!! إننا الكورال الذي يكون خلف المطرب وخلف الفرقة الموسيقية.. أمّا الصوت الحقيقي فهو هناك.. ربما في الزمن الغابر في حفنة تراب سقطت من يد جبريل! نحتاج إلى الخنجر السحري الذي كان بحوزة الفارس داستان كما في الفيلم الأمريكي الأسطوري: رمال الزمن الذي لديه القدرة بمجرد الضغط عليه أن يعيد النهايات إلى بداياتها. أو إلى طاقة تكنلوجية متطورة تخترق بنا الفضاء والتاريخ وتوحّد بين أشتات العالم كما في رواية: رجل تحت الصفر. توقف ثم قال: اسمع يا صديقي! إنني كلما سمعت قرع أقدام ممرضة شعرت برغبة بالصراخ عاليًا! يضحك، بالمناسبة يا أين أنت؟ كيف تتولد الدوافع في اللاشعور؟ ما العلاقة النفسية بين الدافع والحلم؟

لقد مرَّ وقت الاتصال طويلًا.. كنت أشعر وهو يتكلم بأن نفسي يضيق.. كيف تتحدث إلى رجل انفجر جهاز التحكم بالذاكرة لديه منذ ثلاث ليال، فإذا الأحداث تتدفق كالماء من أنبوب!

إنه بالكاد يدعني أتكلم!

قال: الحلم نوعان: نوع يتولد من الوعي ونوع يتولد من اللاوعي ولكلٍّ وظيفة، فالحلم الذي يتولد من الوعي وظيفته: تقدير الذات والحلم الذي يتولد من اللاوعي وظيفته: التطهير".

كان بالتخاطر يلقف ما أنوي التحدث به ويضيف عليه القليل.

قلت في نفسي: لا جدوى منك!

لكنه كأن لم يسمع.. أخذ يتابع على سجيّته:

بالأمس.. حاولت قدر الإمكان رفع يدي إلى مطيبة المرق، قال أطبّاء القرية: المرق دواء من كل داء. لكن يدي كانت كطفل يتعلم الكلام.. عيني نصف ليمونة!

– تقصد نصف مفتوحة؟

كنت أتخيل شكل يديه وهما ترتعشان.. كانت يداي ترتعشان مثله!

استمر في الحديث:

كانت أنفاسي كتنهيدة جمرة في ليل بارد.. تحركت قدمي بلا شعور كذيل قطة نائمة تذكرت الكثير من المرح في لمحة! قال أطبّاء القرية: البسباس

مع المرقة يطرد الحمَّى وينقي الصدر. بالمناسبة هل كلمة بسباس فصيحة؟ نعم؛ ردّ سريعًا!

قلت في نفسي: يا للعجب! كيف يحصل على الإجابات مني بهذه السرعة؟! كيف لا يستطيع العلم الحديث أن يُقعِّد لمسألة التّخاطر هذه؟ المسألة خطيرة جدا.. كيف سنحصل على ملكية الحقوق الفكرية والناس يقرأ بعضهم أفكار بعض؟! أعرف مثقفًا لو اطّلع على ما يحدثني به خيالي عنه أثناء حديثه لي لرماني من أعلى الجبل هذه المرة كنت أنا الذي يضحك! لابد أن يجدوا حلًا قبل أن يقع الفأس على الرأس! وضعت يدي على جبيني.. شعرت به يبتسم وكنت أخاله قد رفع بصره كأنه يقرأ شيئا على الجدار:

ألا زعمتْ بسباسةُ اليوم أنني

كبرتُ وألا يُحسن اللهوَ أمثالي

– يعني أن حبيبة امرئ القيس كان اسمها على الفلفل؟ قلتُ مداعبًا.

– لقد كانت تكثر من الشوق إليه والحديث عنه بينها وبين نفسها والشوق كما تعلم لوعة وحرقة! قالها وكنت أخاله يغمز ويلوح بيديه.

حسنًا؛ لا أتعمّد الهروب من الإجابة صدقني.. لا أدري لمَ يحدث ذلك! كلما حاولت الإجابة على سؤالك: أين أنت الآن؟ شعرت بأن دماغي ينبعج كالحلزون! هل أنا حلزون؟ عندما قال ذلك تذكّرت شيئًا!

أبرق مسرعًا: هيه لعلك تشبهني بغريغور في رواية كافكا الذي استيقظ ذات صباح، على إثر أحلام سادها الاضطراب، فتفاجأ بأنه قد تحوَّل إلى حشرة عملاقة!!!

استتلى قائلًا: صار دماغي أشبه بقبّعة الساحر لا تدري ما الذي سيخرج منها! أرنب أم حمامة أم أم فتاة كالتي كانت على الواتس معي البارحة! ياإلهي! إنها عذبة كقبلة.. نقية كالطفولة. رغم أنها كانت متعبة.. شعرت بها تسعل كرشّة سحابة صغيرة.. لقد تملّكني الإعجاب بها.. كثيرًا كثيرًا كنت أخالها على الكيبورد وردة حمراء.. كانت تنقر قلبي كعصفور نزل النبع يشرب.. ما أجمل أن تشعر بأن قلبًا يثق بك ليس شرطًا أن يحبك لكنه يرتاح إليك! حدثتني عن جنونها أرسلت لي صورًا عن الحديقة التي هي فيها.. عن الطاولة التي أمامها.. عن المساء الذي يوشِّي الأبراج وناطحات السحاب ثلاث ليال سابقة ونحن نتحدث.. عن عشقها للتصوير.. عن كاظم الساهر عن الغناء الجبلي السوري.. عن الشعر الشعبي.. قالت: ذوقك في الغناء حلو! أخذتها مرة ورائي

على الموتور.. كانت الريح تخترق أجسادنا وهي تتشبث بي حينًا وتغني حينا وتصرخ حينًا، كان قلبي حقلًا من عنب.. غابة من تفاح.. خيمة من ياسمين.. لم أكن أتصور يومًا أني سأفرح في حياتي.. خرجنا مرارا.. في القسم العائلي لأحد المطاعم قالت لي: أغمض عينيك. ها أنا أغلق عيني يا سيدتي. فطبعت على شفتي قبلة لا ألذ منها ولا أشهى.. لا تزال على شفتي منها بقية من روح هي كل ما تجعلني أتمسك بالحياة.

لكن عين الغدر كانت لنا بالمرصاد! ذات فجر رنّ هاتفي فبالكاد كنت أفتح عيني سمعت صوت نساء وغناء وزغاريد قالت مبتهجةً: الليلة كان عرس ابنة خالي ونحن في سهر حتى الآن!! أحببت أن أشاركك. حين ذهبت إليها كان الضوء قد بدأ في الظهور.. كنت خائفًا. يا لهذه المجنونة! ماذا لو رآنا أحد من أهلها؟ ثم كيف طاوعتها؟

"ربي اغفر لي إذا قلت: أحبها" يا لبراءتها! يا لبراءتها!

لكني .. حين وصلت البيت رأيت الشرطة تطوق المكان وأمام بوابة البيت جثة ملقاة تسبح في الدماء.. خفق قلبي كالمجنون.. علمت من حشود الناس أنها جثة فتاة!

رفعت الهاتف وإذا رسالة استغاثة: لقد أقسمت ألّا يمسّني أحد غيرك!

ماذا؟

ترى كانت في عرس من؟ ألم تقل لي أنها في عرس ابنة خالها؟ أكان ذلك العرس كمينًا؟ لماذا يزوجونها بهذه الطريقة؟ ربما أخبروها من قبل أن عريسا تقدم لها فرفضت، فأرادوا أن يضعوها أمام الأمر الواقع! يا الله! إنها هي إنها هي أعرفها من شريط شعرها الطفولي! سمعت لغطًا يقول: هي في النار. نعم لا تجوز الصلاة عليها. صرختْ قواي الداخلية بلا شعور: لا لا لم تنتحر أنتم الذين في النار. الجنة والنار لله. لقد قتلتموها أنتم. كلكم تآمرتم على قتلها. عاداتكم القاتلة. آآآآه لم تنتحر.

كانت الدموع تنزل من عيني بغزارة.. شعرت بتورّمٍ وراء أذني اليمنى بالضبط. لاحظت ظهري ينحني على الأرض وأصوت أقدام ملء رأسي.. لا أدري كم استغرقت في البكاء وأنا أصرخ: لا لا دعوني دعوني ألقي عليها النظرة الأخيرة. لكني تفاجأت بصوت يقول لي:

- **بابا.. حان وقت الإفطار.**

ماليزيا

2022 /7 /30

رسالة قصيرة

أنتِ.. ما أنتِ؟

أيَّتها الروح الفراشة.. يا رونق الصباح يا روعة المساء في آن.

أيتها الصوت والصدى.. والآلة الموسيقية وصوت الحياة في آن.

يا أيقونة تتحرك فيها الألوان وأطياف الذكرى.

كم أنت لطيفة

كم أنت رقيقة

كم أنت طيبة القلب.. ومجنونة!

كم تتوهجين كنجمة صيفية.

كم يشع منك الذي يشع من النهر وهو يترقرق ويجري كمُهر أبيض فوق المروج الخضراء.. السكينة والبهجة.

كم وكم ينصبغ المكان الذي يحيط بك بالوداعة.

أيّتها الأنيقة جدًا.. والعطر الفاخر والفخم جدًا.. كم أنا مختلف منذ رأيتك!

كنتُ كمغارة منسيّة وراء الأساطير.. كنت كطواحين الهواء وراء الجبال السوداء.. كمدخنة باردة في منزل مهجور وراء القبور.

أنت ما أنتِ؟ لماذا لستُ على بعضي؟

كنتُ قد اعتدتُ الآلام كسفينة فقدت ربّانها في أعماق الظلمات. ولم أكن في الحياة إلا صورة بلا ألوان.. روح بلا جسد.. شجرة بلا أوراق.. ثم.. ثم تغير كل شيء.. طلع الصباح فاكتست الجبال والربوع والبحار بالنور الوضاء.. كما طلعتِ أنتِ وكما أزهرتُ أنا.

ما أقرأ لك من رسالة إلا وعدت إلا حبيّ القديم.. يخفق قلبي كما لم يخفق من قبل.. إنه نفس الصوت الغريب.. حركة سريعة واضطراب.. افتقدتهما منذ زمن بعيد. لم يخفق قلبي بالحب إلا مرة واحدة في حياتي..

تلك الوهلة الأولى التي تتفتح فيها أزهار الحب لأول مرة فيغدو القلب واحةً من الأمل.. وأجنحةً من الموسيقى. ثم.. حُرمتُ منه إلى الأبد فتقصّفتْ أغصاني وتصوّحتْ أزهاري.

ها هي ذات الخفقة تعود إلى قلبي بقوة هذه المرة.. خفقة الحب البريء الطاهر.. خفقة السهر اللذيذ وخفقة الألم الشهيّ.. وألم الشوق النبيل.

لماذا أسهر وينام من حولي في البيت؟

لماذا أحب الغناء والرقص ولا يغني ولا يرقص معي أحد؟

لماذا في حياتي لم أوفّق بحب كما أحببتُ بالأمس وكما أحب الآن؟

لماذا كلما هفا قلبي لزهرة قطفوها وتركوا قلبي في مُزدحمٍ من البكاء؟

لا بأس.. لقد رضيت بقسمي.. فليَ الحب وعذابه! أهكذا شاءت الأقدار؟ لا بأس، فليكن.. لم يبق إلا القليل! ولكن.. لماذا أرى الحزن مرتسما في عينيها؟ لماذا تبالغ الأقدار في بكائي؟ لماذا لا تتركها وشأنها سعيدة تمرح بلا خوف ولا ألم؟

يا لجَسمها الذي يفلتُ من يدي كسمكة..

يا لجَسمها الذي يطعن قلبي كخنجر..

إنـني أسـتمد سـعادتي مـن ابتسـامتها.. فلتبتسـم ولتضـحك ولتغـني.. ويكفيـني أن أراقـب مـن بعيـد وأحـس بوريـد دمائهـا يشـخب في دمـي.. يكفيني جدا أن أراها سعيدة كفراشة. كمن هو على ربوة يصارع الرياح كي لا تهب على الزهور بقوة، فترتاع الفراشة أو ... تغيب وراء الغيوم.

لقد بخلتْ عليّ الأقدار بالحب الحقيقي فهل تبخل عليّ الأقدار فلا أراها إلا سليمة معافاة من الخيبات وجراحات الزمان؟

ماليزيا

1 أغسطس 2022

الموسيقى القاتلة!

ليست كالأحلام التي تمرُّ سريعًا. ولكنها كالأحلام في التحرّر من تبعة المسؤولية!

دخلت عالمي دون مقدمات.. حبستْ أنفاسي.. وغيَّرت اتجاه السَّفينة!

نعم إن الأنفاس لتحبس كما تحبس أنغام البيانو داخل عقل الفنان وإحساسه. وكما تحبس المعاني داخل الحروف الأبجدية.

وكلا الأنغام والمعاني يسهمان في تلوين الحياة.. وتجديد الإنسان.. ورفع مستوى الذكاء الروحي والاجتماعي.. والإحساس بأهمية السلام والعيش بحب.

لم يكن بيتهوفن رغم ظروفه الصحيّة وقسوة التجارب التي مرّ بها إلا ملاكًا موسيقيًا ينشد للمجتمع النور يكافح في النفس الرّعونةَ والقبح.. كي يغمر الجمال الأرض.. فلا أنانية ولا قطيعة.

وكذلك كان كل شاعرٍ فيلسوف.

كانت كألطف ما تكون من الأغصان رقّةً.. ورشاقة ..

والرّقّة في الطبع إنسانية تأسر القلوب.. والرّشاقة في الحركة تبعث على انتشاء النفوس.

هجم عليَّ جمالها ذات صباح.. فانبجست من صخور قلبي اثنتا عشرة أغنية.. ومن جدران خيالاتي اثنتا عشرة حمامة.. والكثير من الروايات الحالمة. وكانت كل خليّة في جسمي تفرد أجنحتها للرياح كي تطير.. لقد هناك إحساسٌ مَّا بقدرتها على التحليق!

كانت ساقاي تنصتان لإيقاعٍ قادمٍ من بعيد.. تحدَّان السمع.. وتطيلان التأمّل.. كمن يأخذ نفسًا عميقًا!

كانت حلمًا غير متوقّع ..

إنها السلسلة المفقودة في إيقاع حياتي ..

المعنى الذي تسعى إليه حروفي الهزيلة ..

البيت الأخير من القصيدة.. هي تلك القوة السحريّة.. التي تجعلك تتساءل في نفسك: ما الذي أفعله في هذا المكان؟

تلك الطاقة التي تشع في الزهرة فتجذب إليها كل خاطرٍ حيّ ..

تلك الوفرة التي تساعدك على كتابة فصل من رواية وأنت واقف على ساق واحدة.

لقد تملّكني الإعجاب بها حتى التفكير بعدم الحضور إلى مكان العمل كي لا ألفت الأنظار بعفويّتي! عفويّتي التي لم يتقبّلني بها مجتمعي.. فقررت الدفاع عن عفويّتي بعفويّة دون تخطيط ولا تقدير للظروف. حتى تكسرتُ وتناثرتُ في مهب الريح ..

أصبحت أتردد ألف مرة حين أود الحديث أو الابتسام. لكني لا زلت عفويًا في أكثر حالاتي.. لأن التصنَّع طارد لنفسه.. باعث على الاشمئزاز.. أمر غير لائق! فكنت إذا رأيتها في المكتبة ابتسمنا بلا إرادة منّا.. ابتسامة إعجاب فيها الكثير من معاني الاحترام. وارتمينا على الكراسي وأعيننا لا تكفان عن العناق.. وأخذت أيادينا تقلب في الأوراق ونحن في عالم آخر. صار هذا دأبنا كل صباح.. نغدو للعمل

باكرين.. حتى نحظى بقليل من الكلام.. ونروح ونحن لا ندري كيف مر الوقت سريعًا.

فكّرت ذات مرة أن أفاجئها بهديّة جميلة.. فأخذني التفكير في اختيار النوع المناسب من الهدايا أيامًا.. وفي أحد المرات قالت لي على الواتس: أريدك للحظة. قلت مداعبًا: الله يستر.. هل قمت بضرب رئيس العمل؟ فردت ضاحكةً: لا.

كنت في مكتبي الذي يشاركني فيه أحد الزملاء.. أفكر فيما تريد!

حتى تقابلنا في الردهة.. فأخرجت من حقيبتها هدية ثمينة! ساعتها.. عقدت الدهشة لساني، لم أدر كيف ـ أرد معبّرًا؛ خرجت من فمي: آآآآ الله! لم تكلّفين نفسك؟ أشكرك. شعرت بها سعيدة. ثم.. ودعتني بنظرة لا يزال قلبي يقطر حتى اللحظة منها ورودًا وأنغامًا! تفحصتها.. تحسّستها.. أغمضت عيني.. فحضنتها.

ثم إنها انقطعت فجأة عن الحضور!

مرّ اليوم الأول بمشقة.. شعرت أن الوقت ليس كالوقت.. أخذت أبعاده تتقوّس وتنحني.. وحدوده تطول وتتباعد، فانقطعت عن روحي أسبابُ السعادة.. كما لو أنني كنت في حلم! في حلم ليس كأيّ حلم!

كانت حلمًا غير متوقّع..

أشاعت الفوضى في داخلي وفي عيوني.. وفي يدي.. كان كل شيءٍ يقول وأنا أتضرّج بدم الفوضى:

هيَ.. هيَ الموسيقى القاتلة.

4 أغسطس 2022

ليلة.. لولا البعوضة!!

لم أجد في حياتي أخبث من هذه البعوضة التي تناوشني الآن! إنها تتحرك بجنون!

إنني جاهدًا أحاول أن أستغل هذا الوقت للكتابة قبل أن ينتشر الضوء في البيت وتنتشر أشياء أخرى! حيث الوجود الآن لا يزال يتعبّد في محراب السكينة. والسماء أقرب إلى الأرض كأن قلبًا قد التصق من المودة بقلب آخر.

لكن هذه البعوضة السوداء التي كأنها قد ولدت اللحظة متعافية سمينة لا تعرف لعهد الكتابة ذمّة ولا لطقس الكتابة ذوقًا.

لقد أردت أن أكتب عما دهاني هذه الأيام. رغم أن الذي دهاني وصدم وجودي وزحزح تفكيري عمّا كان يخطط له ويشتغل عليه لا يختلف كثيرا عن صدمة هذه البعوضة لي!

من يستطيع أن يصف للحب دواء؟

آه من الحب!

هل يملك الإنسان قوة تدفع الوجود وتزحزحه عن مكانه؟

لقد حلّ الوجود بقلبي. وهل وجود غير الحب والعشق والهيام؟ لقد انتشر الوجود في كياني واستحكمت قبضته على مداخل الثورة والرفض في أعصابي أجل أجل سأقولها دون خوف. لقد استعمرني الحب أو ربما أنا من فسحت له حيّزا صغيرًا في اهتمامي ربما كان ذلك مني من باب الشفقة لا أقل ولا أكثر.. نعم أنا متأكد.

لكنني أحببت. لقد أحببتها من كل قلبي.. كان غاية ما أتمناه أن أراها كما رأيتها أول مرة مبتسمة مبتهجة تنضح حيوية. لقد التقط خيالي تلك الابتسامة اللؤلؤية بكل شغف، كأنما كان تحت تأثير تنويم مغناطيسي.. فأدقَّ التصوير وأتقنه بإحساس عالي ووضع تلك اللقطة

الوضّـاءةِ في بـرواز مهيـب وعلقهـا في كـل حجـرات الـذاكرة وأبى إلا أن يعتكف بي أمامها لا يريم.

جعلني هذا الحب أحمقًا!

أصبح الجوال بيدي طوال الوقت.. أنتظر رنَّة إشعار منها.

صارت الكثير من الأوقات تمر وأنا لا أنجز شيئًا!

كـان الكتـاب لا يفـارقني.. أصبح الكتـاب الآن بعيـدا عـني لأني هنـا في السيارة أنتظرها!

ليتني كنت صغيرا.. كنت على الأقل تخلصت من هذا الشعور الغريب!

خرجت مع مجنونتي في نزهة لا مثيل لها.. لا تستغربوا! فأنا في شبابي لم أخرج مع فتاة غير أمي.. كنت أخرج مع أمي مرغمًا.. وكنت أشتعل غضبا عندما ينظر البائع إلى أمي! أي نوع من الأمهات هذه الأم التي تكلم صاحب الطماط؟

انظروا كيف يتظاهر بالأدب هذا المطمطس! عليه اللعنة!

اتجهت إلى حديقة الشلالات.. قالت: أنا في الطريق. حضّرت نفسي لاستقبالها جيدًا كان الناس يتوافدون بكثرة. أصوات الماء رقراقة كقبلة شفيفة. الجبل أخضر.. تتدرج فيه الانبعاجات.. فأحدبٌ من جهة.. وأملس من جهة.. وناتئٌ من جهة. كانت فراشات تطير فوق الجسر المائي وطفلة في يد أبويها تنظر إليها وتلاحقها بيدها.

- أوه للأسف. لا. ليس هذا المكان. أجبتها على الجوال منزعجًا.

لقد أوصل السائق مجنونتي إلى المكان الخطأ!

أدرتُ مشغّل السيارة وانطلقتُ إليها مشتعلًا أفكّر كيف يمكن لسائق لديه ضمير أن يترك فتاة جميلة في مواقف باص!

بعد مضي ربع ساعة.. وبعد أن أكلني الخوف عليها.. وصلت.

تلاطمنا قليلًا.. واعتنقت أيادينا في الطريق ونحن نتشاتم غارقون في الضحك!

استقبلنا الشلال كما تستقبل الجماهير زعيمها!

كنت أشعر أنّا عروسين وأن الناس قد احتلقوا من حولنا يهنؤون ويباركون. لكن مجنونتي تركتني أسبح في عالم الخيال وانطلقت إلى إحدى المراجيح هناك في البعيد تدفع الهواء بقوة وتطير والعوائل ينتظرون الدور لأطفالهم حتى يلعبوا!!

مجنونة!

آآآآه مجنونة!

أقصد هذه البعوضة التي لم ترتو من رشف دمي وقرمشة جسمي! أريد أن أكمل القصة وهي تزلزل سلسلة أفكاري لا تقطعها فحسب! لقد مثّلها خيالي لي بدبّابةٍ صغيرة لها أجنحة.. سريعة كالشهاب.. تصل إلى هدفها وتوجع كالشياطين مهما غلّفت نفسي واحتلت بالمناشف والشراشف!

نعم، لابد أن أعود للكتابة. لكن عضة البعوضة تشتت الأفكار!

كانت هناك الكثير من العوائل حول "المرجيحة" في حديقة الشلالات. وكان أطفالهم الصغار يخطرون بهدوء من حولها.. وفجأة.. وبينما هي تتأرجح في الهواء.. إذا بها تلقي بنفسها عاليًا.. لكنها فقدت توازنها عند الهبوط على الأرض.. فشهق الناس حول المرجيحة.. وارتسمت على

وجهها علامات القلق.. وإذا بها تقترب من الأرض فمدت يديها لتحمي وجهها من الارتطام بالأرض.. وكادت تحدث كارثة! لكني استقبلتها بحضني كأب يستقبل طفلته بعد رميها عاليًا.. لقد كدت من قوة الاندفاع أن أسقط أنا أيضا!

رفعت صوتي بالضحك.. متظاهرًا بالسرور.

طبعًا، الناس هنا لا يستسيغون مثل هذا الجنون! لكن ماذا نفعل؟ أردت أن أعّقلها فإذا بي أشد جنونا منها.

أوه!

من يصدق أن هذا الألم في عرقوب قدمي من بعوضة؟

دخلت ليلًا في إحدى تلك الزحليقات الكبيرة التي تشبه الحلزون، فصدمت برأسي الحلقة الأخيرة من البوابة.. فنبتت في وسط قرعتي ربوة صغيرة من الألم. أخذتْ ليلى بيدي.. وتوغَّلنا بعيدًا عن الناس في الغابة. كانت تتحدث بلا توقف.. لكنها فجأة قفزت مني بعيدا كأنما صعقة كهرباء مسّتها!

- فأر بين العشب فأر ألم تره؟ تضحك وتغرق في الضحك. تسابقنا.. فأسلمتْ ساقيها للريح فتقدمتني.. ثم إني فردتُ

أجنحتي.. وإذا بها تشعر بي عند رقبتها.. صاحت: خلاص خلاص. استسلمت.

لعبنا.. اعتنقنا بحب.. ذهبنا إلى المطعم.. شربنا المعسل.. غنينا بصوت مرتفع.. من لو كان قد قدِّر له من الشعراء ليلتها فرآنا، لصاغ أجمل قصيدة حب ولصدحت بها أعذب الألحان ولغناها أشجى صوت في الدنيا.

قالت لي: على الواتس. شكرا لك. هذه ليلة لم أذق مثلها ما أروعك!

عدت البيت أشك في نفسي! حقًا. هل يمكن في الدنيا أن توجد لحظات كهذه؟

كنت أتمنى أن أسترسل أكثر. لكن الضوء قد ملأ الغرفة وعليّ أن أفرغ من أمر هذه البعوضة فقد قتلت الكثير في خيالي مما أردت، ولم يبق في مزاجي غير هذا القليل.

إليك أيّتها السّيّدة النّبيلة..!!

إليك كما لو كنتُ أنا.. أجل، إليك هذا التَّوَهَان الذي يطيف بي.. إليك هذا الضجيجُ من الهواجس.. إليك هذه الميول المسكونة بك.. إليك هذه الكلمات المرتجلة.. كلمات لا عنوان لها ولا عناصر ولا نهاية.

كلمات كالصباح في نداه وغنائه.. كالمساء في سحابه وشواطئه.. كاللذة كالألم.. كلمات كفصول السنة.. ممطرة مجدبة.. باردة حارة.

كوتيرة أنفاس العاشق الذي برّح به الشوق.. كقصص الأطفال قبل النوم.

كالعصافير.. كالينابيع.. كالشجر.

إليك عن وعي تام، وسابق إصرار.. وبكامل قوايَ العقلية أعترف بأني معجب بك معجب بشخصيتك.. بنكهة حديثك الخاص.. بشراستك البريئة.. بابتسامة عينيك وهما يرفَّان بظلالهما على عنّاب شفتيك.

إليك نفثات قلم يكره التردد والجبن والجمود.. يعشق الضرب في الأوراق صباح مساء.. يهوى المغامرة.. قد أغلق أذنيه عن كل حوار داخليّ سلبيّ.

يجري كمُهر.. كنهر الحياة المجنون.

يعيش بالكتابة كما يعيش السمك في الماء. كما تعيش الأساطير في أذهان الشعوب.

غير أن هذا القلم الآن يقف بين أصابعي ساعة يترنح.. ينتظر شيئا ما.. وحْيًا ما!! يريد لفظًا ينزل على المعنى بدقَّة.. مصيبًا وصفَ ما أشعر به على الحقيقة.

لكنه عبثًا ينتظر!

أي درجة هذه من الإعجاب الإنساني يمكن أن يُطلق عليها؟ أهي درجة بين الاحترام والحب؟ بين النوم وحلم اليقظة؟ أم هي كالفاصل بين الاشتهاء والرغبة؟

أرجوكِ! لقد جف ريقي وأنا أسأل النجوم وأسأل كلَّ ما يعنّ لخاطري ولكن لا جواب، فلا تنتظري مني تفسيرا!

أتخيَّل – وأنا أحقِّقُ في هذه الحالة التي تعتريني– مقدّمةَ أغنية "ألف ليلة وليلة" لأم كلثوم.. تلك المقدمة الساحرة التي تبلغ من قوة الخيال الموسيقي أن تجعل القلب الخالي يتصور أنه يعيش قصة حب حقيقية! فإذا بواعث الشوق تتجدّد، وإذا الخيال يُصوِّر اللقاء المشتهى! وتستمرّ الأغنية.. ثم تبالغ قوى التَّخييل في تضخيم المقاطع الصوتية للنغم، ويصحب ذلك تكثيف في المشاعر، فيتنشر في أفق الروح ما يشبه الضباب! فإذا اليدُ تمتدُّ في الهواء مِمَّا يتخيل العقل، ليصافح يد المحبوبة، وإذا المحبوبةُ فلقةٌ من القمرْ.. تنفَّست وقت السَّحَرْ، قد تضرَّج خدَّاها بحمرة شفيفةٍ كحمرة الشفق.. تمدُّ يدًا راعشة كأنها كأسُ خمر!

وتنسرب أصوات الآلات الموسيقية بعرامةٍ في عروق القلب ونياطه.

وتُتصَوَّرُ ليلةٌ كألف ليلة.. هي أحلى ليالي العمر.

و ... وتستمر الأغنية.

وفي الحقيقة ليس غير طاقة الموسيقى وقوة الاستقبال!

كذلك يمكن أن يكون الانطباع الأول، وما يعقبه من أثر يشبه في استقامة معناه استهلال "ألف ليلة وليلة".

فهو إعجاب يحفّز على المزيد من التواصل الإيجابي الجميل.. ويعطي الحياة بين شخصين منسجمين معنىً وشغفًا من نوع ما.

إعجاب ينمّ عن سلامة فطرة ورقّة طبع ورقيّ إحساس وصفاء مخيلة وروح طفل ورغبة بالتقدير. إعجاب خَلفيَّتُه هديلُ الحمام، وتغريد الحسُّون، وخرير الجداول، وانحناء السنابل.

أنا معجبٌ

عيني وقلبيَ معجبانْ

العينُ تومض بالجمال وتُشْرِقُ

والقلبُ يُخفي جُرحَهُ الدَّامي القديمَ ويخفقُ

العينُ: تهتفُ لا فرارْ

والقلبُ معترضٌ.. يقولُ تريَّثي

فالحبُّ كم شَقيتْ بهِ روحي عذابًا وانكسار

العينُ تركبُ وقتَما شاءتْ

وتنسى ما تُخَلِّفُهُ بقلبي المُدْنِفِ

والقلبُ من ألمٍ يُداري عشقَهُ

مُتَوَسِّلًا أنْ تكتفي أنْ تكتفي

يتقاتلانِ عليكِ

ثمَّ

مع

المدى

يتصالحانْ

2022 /8 /26

عاشقان في السّينما

"ودارتِ الأيّام" كما تقول كوكب الشرق.

وإن هناك من الأيّام ما يشعر الواحد فيها كأنه في جنة! أيّام حبيبة إلى النفس .. أشبه برقصة الفراشة.

وكم هو جميل أن يأتيك اتصال ناعم وأنت في عز الظهيرة والرطوبة تكبس على الأنفاس والشمس تشوي الأرض وتذيب الحديد.

– أنا اليوم في أسوأ حالاتي النفسيّة! تبكي.. مرت ليلة الخميس وزوجي في أحضان الصّينيّات، والجمعة.. كل من في البيت نائم فيها لم يذهب إلى المسجد أحد أكاد أختنق.. أكاد أختنق.

لماذا يفعل بها زوجها هذا؟ هل هذا فعل المحبّين؟ لم هذا الظلم؟ إن الذي يحب حقًا لا يمكنه أن يفعل مثل هذا؟ كنت أتساءل في نفسي باستغراب! لا يمكن إما أن يكون مريضا أو مجنونًا!

ساعتها كنتُ في المسجد أقرأ سورة الكهف.

شعرتُ حين جاءني الاتصال.. بنسيم فوّاح، وماء بارد يترقرق إلى داخلي مع حزن عميق يعتصر قلبي.

لقد مررت بمثل هذه التجربة المأساوية: العزلة والوحشة والغربة داخل البيت!

ولا عجب فكل منّا يمر بتلك المراحل العمريّة التي نرزح فيها تحت أعباء الرقابة العائلية لا نملك أن نتّخذ قرارًا مستقلًّا.

لكننا كأولاد.. نتمرّد.. ونتربّص الفرص ونكمن في الزوايا ونفلتُ إلى الشارع. ثم يتناسى الآباء أو يتغاضون.. أو يعاقبون بضراوة. أما البنات فهن أسيرات ضعيفات تقيدهن أعمال المنزل حتى المساء.. وتعيقهنّ عادات المجتمع المحافظة.

كان أبي رجلًا مِزواجًا.. فكان يطردني من البيت ويبقي أخواتي للخدمة. يعلفن للحمار ويذهبن للبئر ويقمن بإعداد الطعام.. وزوجة أبي الشّابّة غاطسة في الراحة قد خوّلها أبي رقبته فهي تطوّح بها أنّى تشاء.

كنت أسمع قلوب أخواتي وهن يبكين خيفة وخفية في الليل.. كنت أسمع لعناتهن لأبي وهن ذاهبات لجمع الحطب.. كنت أسمع كل ذلك وأكثر. لكن ما كان لي حيلة. فمن العيب أن نتشاجر مع آبائنا أو أن نطالبهم بالمحافظة حتى على الهامش الضئيل من الكرامة.

ماذا أرد على حبيبتي.. حبيبتي التي أشعر وإياها أننا كيان واحد.. أننا خلقنا لبعض حبيبتي التي يشاركني بها شخص آخر.. هو.. زوجها؟

ماذا أرد عليها؟

كتبت لها على الواتس: حبيبتي علينا أن نصبر.. الصبر مفتاح الفرج و... لم تدعني أكمل. قاطعتني!

كان الناس يقرؤون من حولي القرآن.. وكنت في جو مشبع بالروحانية. قالت: ما رأيك نلتقي؟ قلت في نفسي: لا بد أنها تمزح! نعم هكذا هو طبع الفتيات.. مزاجيات ولا يعرف لهن قرار. قلت لها: نلتقي؟ قالت: الغداء على حسابي. كانت على الجدار في ساحة المسجد شاشة كبيرة

تتيح رؤية الخطيب لمن لم يسعفهم الوقت فيصلون داخل المسجد حيث الأجواء المكيَّفة. شاهدنا فيها شيخا واقفًا ينظر إلى جيبه ثم أخذ يتكلم بالملايوية يبدو أنه يتحدث عن آداب الاستماع إلى الخطبة! أنا في العادة أصلي في الصفوف الأولى داخل المسجد لكنني نسيت الكمامة. نعم، الناس لا يزالون يحترزون من كورونا خاصة في الأماكن المغلقة. أرسلت لها: إن شاء الله نفكر بعد الصلاة. توادعنا ودعونا لأنفسنا بالبركة. بدأ الخطيب يتكلم.. يقرأ من ورقة ويرفع صوته ويترنم وأنا أراقب كل كلمة ينطقها وأحد بصري وأشحذ تركيزي ولكن.. لا فائدة. اللغة الملايوية لم تستسغها أذني. فاكتفيت بأني إنما حضرت لأنها جمعة. نعم، حسبي هذا. لكن خيالات النفس الأمّارة دائمة الحركة.. تموج في عوالم الشعور كأمواج البحر بين خفض وارتفاع.. بين همس ووشوشة وبين هدير وصخب. أخذتني إلى البعيد.. حيث المرح وتعويض أيام الحرمان وإكمال النقص الذي أشعر به في حياتي العاطفية إلى حيث المشي على رمال الشاطئ وأيادينا مشتبكة ونوارس البحر تحوم فوقنا كأنها تظن فينا قاربًا للحب يتراقص فوق الرمال أو جزيرة نائية لا يسكنها أحد غير الحب والأحلام.

بعد الصلاة ووسط الحشود المتدافعة وحرارة الأرضية الصاعدة ومراوح الساحة الكبيرة تدفع بالهواء الحار في وجوهنا.. قررت الذهاب للقاء.

بدّلتُ في البيت ملابسي سريعًا.. حيث علمتني حياة العزوبية أن أصل إلى مبتغاي بكل سهولة.. فلا أعلق أشيائي على الجدران أو الخزانات وإنما أنثرها على الأرض، فأقفز على اللون الأبيض، فهي إما فنيلة أو سروالًا أو ثوبًا، وهكذا فأنا لا أقضي الوقت في التفكير الطويل! كان أكثر ما يدفعني للخروج هو الشفقة على حالها.. لقد عرفت قصتها كاملة.. عرفت كيف كانت تعيش قصة حب فاشلة.. حبًّا أعطاها صورةً سيئة عن الرجال. فقبلتْ بالزواج من رجل متزوج لا حبًّا في الزواج، ولكن تشفّيًا بحبيبها الذي تزوج بغيرها، ونكث عهده ووعده إياها بالزواج منها. وعرفتُ كيف تعيش الآن مع زوج عاجز لا يشبع لها رغبة.. تتزيّن لها وتتجمّل وهو منصرف عنها بالكلِّيَّة.. لا يجد فيها ما يجده عند الصّينيّات! يجمعهما سقف واحد طوال اليوم، وبين قلبيهما من الغربة بوْنًا شاسعًا كما بين السماء والأرض! لقد كانت مقهورة طوال الوقت.. لماذا يفعل بابنة الناس هذا؟ هل هذا فعل مُحِب؟ نفَذتْ جعبتها من كل حيل الإغراء الأنثوي.. فذبلت وغاض ماء حسنها وأوشكت على الانزلاق. كنت أجمع كل هذا في داخلي، وأقدّر لو أن فرصة الخروج مع فتاة تمكنت لخبيث لما كانت حالاتها النفسية سترده عن فعل شيء! لقد كنت أخاف عليها أشد من أبيها وأمها.. كنتُ في نظرها الحبيب الملهم.. وكانت في نظري النّقيّة المعذّبة. لقد كنت في نظرها كل

شيء في الحقيقة، وكانت في نظري ضحيّة.. ضحيّة من؟ ضحيّة عائلتها؟ أم ضحيّة زوجها؟ أم ضحيّة التعليم الفاشل الذي لا يناقش في مناهجه مثل هذه الأمور حتى يشب مفهوم الأسرة القويم مكينًا، فيستقر في النفوس مهيبًا جليلا.

فتاة في العشرين.. تتوهج حيويّة.. يبرق جسمها لذة.. أنيقة في كل شيء.. جوالها حقيبتها.. لونها السُّكّري كأنها أوراق شِعر أو سلاسل الذهب كقصائد البحتري.. طويلة مربربة كمعلّقة! لو علم البلاغيون بها لصاغوا منها أبلغ الكلام وأعذب الرُّقى وأنفذ السحر وألغوا المعلقات العشر! عزيزة نفس كملك من ملوك الدنيا.. كريمة لأبعد الحدود.. لو أردت تشبيهها بفاكهة من الفواكه الشهيّة.. كي نترك للخيال أيضًا دوره في تطعُّمِ الأشياء في حين تعجز اللغة العادية عن نقل الطّعوم والروائح إلى مدارك الحسّ، لشبهتها بعنقود عنب!

أجل، إنها عنقود عنب يمشي على الأرض.. يرقص.. يجري.. يقفز.. يقف لافتًا بذهول. عنقود عنب.. شفتاها.. خدودها.. أناملها.. نهودها.. أردافها.. بطنها.. بل حتى قوامها الفارع مُسكِر يذهل القلب عن مكانه.. فيجعله يترنّح بين الضلوع يوشك على السقوط.

وضعتْ يدي في يدها، فما الدِّيباجُ الخُسْرَوانيُّ وما الوَشْيُ المُنَمنم؟!

ونظرتْ إلى عينيّ، فما كتابُ السماءِ المفتوح وما غابات النخيل؟!

وتكلّمتْ فما صوتُ فيروز وهي تُغني: أعطني النّاي وغنّي؟! إن صوتها متناسق في إيقاعه وجرسه.. متناسق في ترجيعه وصداه.. متناسق يناسب كل حالة من حالات اللذة والألم الكامنيْن في كل نفس.

علّمتني في الحديقة كيف ألعب كرة الرّيشة.. وضعت يدي بلطف على المضرب فطار إلى أنفي ما خلف أذنيها من عطر.. فضغطتُ على يدها وقلت: رائحةُ مطر آه لو تعلمين أيّ حزنٍ يبعث المطر، وكيف يشعر الوحيد بالضياع؟ فهربتْ مني إلى ربوة صغيرة ضاحكة من بعيد: هيي أنا هنا. كنت واقفًا جوار مجموعة من النخيل نخيل الزيت، وأشجار جوز الهند الطويلة الارتفاع.. ولم أشعر إلا وحبّة جوز هندي بحجم جمجمة عملاقة تسقط باتجاهي.. سلم الله فانزاحت إلى كتفي.. فاسودّت الدنيا بعينيّ.. تحركت بلا إرادة إلى الأمام بمقدار بوصة.. هاربا أنظر إلى الأعلى.. فإذا قرد صغير منحشر بين الأغصان المفلطحة يعبث لا يبالي.. تألمت قليلًا.. فأسرعتْ إليّ واعتنقتني وأخذتْ تتحسّس كتفي وتضحك.. حتى القرود يرفسونك؟! قالت وهي تهرب إلى البعيد ثانية وهي تضحك.. لكني هذه المرة قررتُ أن أريها كيف تكون السرعة الحقيقية، فكأنما أوتيتُ قفزةَ الصّوفيّ! وإذا بي عند رأسها فصاحت:

"أستسلم أستسلم خلاص". ولقفزة الصوفي هذه قصة عجيبة! كنت مرة في منقطة "العدين" من محافظات اليمن الجميلة، وكان في تلك المنطقة جبل على جزء من ناصيته آثار قدمين عملاقين لإنسان زعموه: الوليّ الرّفاعيّ، وكان يتحلّى بكثير من الكرامات كما يحكون.. وكان من تلك الكرامات أنه قفز من ذلك الجبل إلى الحرم المكيّ قفزةً واحدة فكنت أقول لهم: صحيح، فالرّفاعيّ جدّي من جهة أمّي!

صلينا العصر معًا.. وبعد الصلاة شرعتُ أحكي لها قصة.. لكنّ سحابةً قاتمةً كانت تعلو جبينها على غير العادة! كان الجوال في يديها وتكتب بكلتا يديها بسرعة. قرّ في نفسي أن ثمة خطب ما. قالت: أهلي يسألون عني ولكن لا عليك منهم. فكرتُ قليلًا ثم توجهتُ إلى عينيها.. أنظر في حزن وأتأمل! قلت لها هاتي السيجارة. فأخرجتها وقالت: هديتي إليك.. فأخرجتُ لها: عطرا فاخرًا. قلت لها: أفرح لو تقبلين مني هذه القارورة. كانت لا تزال ظلال من تلك السحابة من الحزن تعلوها! فقررنا العودة! كان في الجهة المقابلة زوجها قد استيقظ من النوم.. جائعًا لا يجد أحدًا في البيت غير أمّه العجوز.

عاد إلى غرفة النوم كسولًا.. ينظر صورته في التّسريحة يجول بعينه ويتحسس بأنفه كالكلب يبحث عن أي أثر غريب. مدّ يده إلى عود

الآذان بتثاقل بلل العود بفمه ثم أخذ يدير العود في أذنه اليمنى ثم يخرج العود متأملًا فيما علق في القطنة ثم يبلل العود بفمه ثانية ويدخله في أذنه اليسرى محدّقًا في الساعة وأصوات الشارع تترامى إليه بوضوح. خرج إلى الصالة ثانية كانت الثالثة عصرًا.. جلس على كرسي متثائبًا تذكر أنه لم يصلّ الجمعة، فمشى إلى الحمّام، وأصداء أنفاسه تتصاعد وتتلاشى في أرجاء الصالة.. أين ذهبت هذه الجنيّة؟ تهمس شفتاه بتثاقل وهي يغلق الباب.

قالت: نعم، يريد مني العودة. انطلقنا إلى السيارة بين تلك الغابة والأشجار الباسقة والهواء الذي يهب من جهة البحيرة. كانت يدي في يدها الرطبة حتى وصلنا إلى السيارة. هكذا هي الحياة.. تمنح وتأخذ.. إنها دوّامة مستمرة لا تتوقف.. تتغير وتتحول.. يوم لك ويوم عليك. قالت: حرمونا من أجمل اللحظات. تحركت السيارة وتركنا الحديقة خلفنا تئنّ شوقًا وشفقةً على حبّنا من العالم. إلى البيت اتجهنا.. كانت الطرق مزدحمة بعض الشيء.. أنا أعرفها قلت لها: عينك في عيني. فنظرت باسمة ثم أشاحت بوجهها بعيدًا. أخذتُ أهوّن عليها وألطّف الجوّ.. وأنا في مثل هذه المواقف المرتجلة أدخل فيما يشبه الضباب.. يتضبَّبُ عقلي.. تتضبَّب الكلمات.. تتضبَّب شفتي وأجنحة خيالاتي.. جذبتها

إليَّ فانجذبتْ بهدوء فقبّلتها وكأني وضعت في تلك القبلة روحي. لم نكن نخطط عند لقائنا لأي شيء.. لم نكن نخرج ورقة وقلم ونخطط أين سنلتقي وفي أي يوم وفي أي ساعة.. كنا نرتجلُ اللقاءات.. نندفع للاتصال دون تفكير.. نقرر دون تفكير.. نحبّ بعضنا دون تفكير.. كنا نبكي دون تفكير.. لماذا تعاملنا الدنيا بهذه الطريقة؟ كنت أحيانا أقول: لو أني متُّ وتخلصت من هذا العذاب أما كان أفضل؟ فأستغفر الله وأعود لرشدي وأقول: لابد أن لله حكمة في كل شيء، حتى لو ندر السبب. قالت: لا توقفني عند البيت بل عند إحدى المولات بالقرب من البيت..

- هل ستدخل معي؟
- أخاف عليكِ.

كانت حزينة للغاية فأنا أعرفها مجنونة.. ترقص في السيارة وتخرج رأسها من النافذة وتصرخ.. وعند الإشارة لو رأت طفلا في السيارة الأمامية تؤشر بيديها وتضحك.. قالت: ادخل معي.. على الأقل نتغدّى. كان المول ضخمًا بأربعة طوابق.. رحبًا ووسيعًا.. تلقفتنا البرودة برودة المكيّفات عند البوابة.. يا للروعة! كنت أتركها تمشي أمامي.. يا لجسمها البضّ.. يا لمشيتها التي تطيّر العقل!! بعد أن تناولنا الهمبرجر.. تفتّحت

عروقي فتدفقت الدماء وشعرت بحيوية ونشاط.. شد ذلك من عزمي فأردت أن أقفز عليها فأرفسها! لكن كان المكان رسميًّا شبه مغلق.. قالت: تعال تعرّف على الطابق الثاني.. أخذنا نصعد الطوابق ونتحدث وقلبي يرجف خوفاً! قالت: يوجد هنا سينما.. فلم أصدق.. أنا أحب السينما. قالت: بلى يوجد. فأخذتني إليه. نظرت إليّ ونظرت إليها.. ماذا نفعل؟ نحن مجنونان بالفعل! حجزنا لمشاهدة فلم.. فلم رعب! ألم أقل أننا عاشقان مجنونان! هل يمكن هذا؟ فلم رعب ونحن في أول الغرام؟ ألا فيلمًا رومانسيًا؟ دخلنا في الظلام وأخذنا مقاعدنا في الأخير.. يا لها من شاشة عملاقة ومكبّرات صوت وبهو مهيب.. ومقاعد جديدة. أول ما استلقينا على الكراسي والهواء البارد يهب علينا تنفسنا الصّعداء. يا لله كم هي رائعة هذه السينما! كانت لهمساتنا رغبة.. لم نصدق أن الوقت يمكن أن يخذل حبيبين، فينقضي بهذه السرعة! لقد تعلّقتُ بها.. سَكِرتُ بها.. أحببتها من أعماق قلبي.. إنها في عيني أنقى من ماء الغمام.. أنقى من الطفولة.. بريئة غير مذنبة.. زوجها المذنب.. عائلتها المذنب.. مجتمعنا المذنب.. أما نحن فحبيبان لا تجمعنا بهارج الدنيا ولا تقاليدها ولا عاداتها بل الحب الصّافي وفطرة الحب النقيّة.. ما أجملها! وما أجمل حبّها! كم هو الحب نعمة.. لم أتركها إلا وابتسامة الرّضى تعلو محيّاها.. آه ما أروع الحبّ!

إننا من غير حبٍّ

كالذي يستمطرُ النيرانَ ماءْ

كالرحيل بلا دليلٍ أو رجاءْ

كالصباحِ بلا ضياءْ

إنَّهُ شوقٌ إلى اللاشيءِ.. شيءٌ غامضٌ يُدعى الحنينْ

إنه ركضٌ إلى المجهولِ

لولا الحبُّ؛ ضربًا من جنونْ

حدِّثيني يا شفاهَ النَّاي

لولا نفحةُ الله التي في الرُّوحِ تسري

من نكون؟

صوت من عقيق

صوتك ما صوتك هذا اللامنتمي؟ ما هذا الصوت الأنيق الذي يشبه ملكًا يرتدي كامل أبَّهته ويستعرض بكامل حاشيته.. ويمشي بكامل قوته.. ويوزع نظره على رعيته بكامل ثقته!

ما هذا الصوت الملائكي.. الذي يصلح أن تصدح به أجراس الكنائس.. وتباشير رمضان.. وتراتيل المعابد والأديرة.

ما هذا الصوت المثقف.. الذي يملأ أغوار النفس بالسرور.. والعقل بالمعرفة.. والقلب بالحكمة.. والجسد باللذة والنشوة.

هذا الصوت.. الذي يمشي كسحابة.. الصوت الذي يشبه تناول كوب قهوة على السرير.

كم أنت رائع أيها الصوت اللا منتمي؟ أين أنت؟ وكيف اختفيت كل هذه السنين عن الكتاب والشعراء؟

هل أنت مجنونة؟

كيف تخفين هذا الجمال وتبتعدين به بعيدًا عن الفراشة.. والزهرة.. والفرح؟

لم لا يُستنسخ من هذا الصوت آلاف الأصوات.. حتى يأنس المرضى فيبرؤون من أسقامهم.. حتى يطبب به الذي تقدم به العمر فيعود إليه رونق شبابه.

لم لا يُستنسخ من هذا الصوت آلاف الأصوات حتى تصبح الموسيقى شبابيكا ونوافذ.. وأبوابا وعتبات.. وأقلاما وكلمات.. وعرائس ومنصّات؟

لم لا يُستنسخ من هذا الصوت آلاف الأصوات؟ حتى تعود إلى الأرض "سلمى".. ويعود "السندباد" من رحلته الطويلة.. ويعمَّ النهار؟

ماليزيا

31 أغسطس 2022

الشَّاعر والأرض

هَبَطتْ ذات يومٍ فتاة جميلة.. خضراء صافية. قيل إنها كانت نتيجة اصطدام كوكبين عظيمين!

كانت الدهشة قد عقدت شفتيها.. قالت في نفسها: عليّ أن ألتحسّس مواضع قدمي.. سرى في جسدها البضّ شيء من طمأنينة. ظلت تراقب الأشجار وهي تخرج من أكمامها الصغيرة! يبدو أني سأكون أمًّا! هكذا كانت تسمع هسيس الخواطر في روعها.

لم يرعها منظر الكائنات الأليفة وهي تموج وتنتقل معًا من مكان لآخر كأنها عائلة واحدة.. فقد كانت الفتاة مزودة بالمعرفة.

استلقت على ظهرها ساهمةً تنظر إلى السماء بعتاب تحرسها الملائكة.

عندما كانت عيناها تشع بأمل العودة إلى منابعها الأولى، كان النهار يتشكل في الوجود لأول مرة.

مرت الأيام ومحاجر عينيها تزداد بريقا.. ثم صارت السنين قرونا والقرون دهورا ولم تكن تشكو من شيء!

حتى شعرتْ ذاتَ يومٍ برجفةٍ شديدة في أطرافها.. ففزَّتْ مستغيثة، لكنها اكتشفت أن الحشائش قد التفت بكثرة حول ساقيها وقد نمت الأعشاب في كل مكان وامتدت أطرافها واستطالت ..

حتى صارت أطرافها سهوبا وأودية!

طارت الطيور من على الأشجار بعيدًا عندما ترامى إلى حسِّها صوتُ أقدام بشرية زاحفة!

أخذت مضاربُها تبكي بحرارة كأن فيروسا غزا خلايا جسدها.. مشاعر جمَّةً اجتاحت كيانها بصورة مفاجئة! لا تدري لتلك المشاعر رسمًا ولا اسما!

تفجّرتِ الدموعُ من كل الأنحاء رقّةً لها.. من النجوم والجبال والسهول والكائنات..

حتى صارت الدموع سحابًا وبحارا.

أخذت تساورها الشكوك! هل ستعود لأبويها؟ تأخروا في المجيء كثيرا. اشتعلت الخواطر في مخيلتها ثانيةً فأضحت الأسئلة شغلها الشاغل: لماذا متى كيف؟؟؟ لم تستطع النوم.. عاجزة عن الحركة..

حتى صارت تلك الخواطر أطيافًا ورياحا.

لكن الإنسان منذ جاء.. انتشرت الوحوش والجن واقتتلت فيما بينها وثارت رائحة الدم!

أكلت النار الغابات وانتشرت الأوبئة وانتشر الرؤساء والعسكر!!!

لكن الله اللطيف كان بجانبها، فقد جعل لها الشاعر حارسًا من الشرور. وظل يُلحُّ عليها: ستعودين يوما إلى الوطن.. إلى موطنك الأول.

ماليزيا 21 مايو 2019

الشَّبِيه بالناقة

دعوني اليوم أعرض عليكم نبذة من حياتي التي يمكن أن تكون قدوة صالحة في الضياع!

بدأت حالة التضييع هذه في مرحلة الإعدادية.. في الثاني الإعدادي بالضبط يوم بدأت شياطين الشِّعر تنتشر في عروقي ومسامات جلدي! كنت في السادسة عشرة من العمر تقريبًا!! فأصبحت أضيع الطريق.. طريق العودة إلى البيت طبعًا!!

أدندن بالشعر طول الوقت.. تلقفني طريق وترميني طريق ولا أصل البيت إلا بمعجزة!

لقد حدثت معي قصص كثيرة، ولو أني جمعت قصص ضياعي في شعاب (المخلاف والعدين وصَبِر) لأصبح لديّ سِفْرٌ من العجائب والغرائب!

لماذا أطلق أصدقائي عليَّ: الشبيه بالناقة؟!!!

دعونا نبدأ من العُدَيْن..

"مِن العُدَيْن يا اللّه! يا اللّه بريح جلاب"

أرض العدين؟!

وما أدراك ما أرض العدين؟!

مهوى الشعراء.. ومهبط الحسن والجمال.. تتلقاك الورود بكل طاقاتها الخصبة وانفعالاتها المتوهجة وألوانها الزاهية على الطريق منشدة: (يا ضيفنا لو زرتنا)!

لا أدري كيف غفل كتَّاب العربية عن أرض العدين؟

علي الطنطاوي والزيّات وأولئك المولعون بأدب الوصف.. أو تشعير الطبيعة.. تحمل مؤلفاتهم توصيفا لكل الدنيا عدا اليمن!

لماذا؟

لستُ أدري!

أرض العدين إنها قطعة من الشوق.. لا يغادر الشتاء ربوعها.. ينام السحاب بين حشائشها الخضراء، فهي مطلولة ندية.. يكاد الهواء العليل فيها من الغضارة والنضارة يصير مطرا!

تمامًا كما قال أبو تمام:

مَطَرٌ يَذوبُ الصَحوُ مِنهُ وَبَعدَهُ

صَحوٌ يَكادُ مِنَ الغَضارَةِ يُمطِرُ

غطت زهور الروابي عيون الشمس.. فالجو مقمرٌ عطِر! صوت النجوم والأشجار والعصافير يتسرب إلى عين الماء في رأس الجبل، فيمتزج به، فلا تغرف البنات عندما يردن الماء من البئر ماءً فحسب! إنه كوثر من كوثرِ! لتَكادُ القلوب تضيء بمجرد نزول قطرة من الماء إلى أعماقها!

هناك سكن طارق السكري السحاب كما قال أيوب طارش . كنّا قد عدنا إلى اليمن تلك الفترة فنحن من مواليد السعودية – ضحايا الأزمة – لم تلائمني مدينة تعز.. فالتحقت بأخي.. كان أخي الكبير عبد

الرحمن الدعيس يدرس فيها، درستُ الثاني الإعدادي في العدين.. وهناك التقيتُ أول كتب الأدب " المستطرف من كل فن مستظرف"!!

الحديث طويل ...

دارت الأيام، وعدت إلى العدين مرة أخرى للدراسة في معهد المعلمين أول ثانوي حيث لم يكن في المخلاف معاهد بعد.

سكنت في منطقة اسمها: الرِّيسْ.. ولكن لسوء حظي توجد منطقتان اسمهما: الرِّيسْ في العدين!! ريس أيفوع وريس مذخيرة! المسألة بسيطة جدًا.. كانت واحدة تتبع محافظة إب، وواحدة تتبع محافظة تعز! وأترك لخيالكم الواسع تقدير المسافة!!

أوه! ها هي السيارة الصالون

– السلام عليكم

– وعليكم السلام

– أريد أن أذهب إلى منطقة الريس في العدين.

– على الرحب والسعة تفضل! (قال سائق السيارة الصالون)!

وبدأت رحلة ابن بطوطة المخلافي!

انطلقنا من عصيفرة تعز عصرا، تصعد السيارة بنا جبلا وتهبط بنا واديا.. تشق بنا الظلمات.. حتى إذا انقشعت ظلمة، غشيتنا ظلمة غيرها، ولا ندري والله! أنحن في أعماق المحيطات التي قال الله عنها (ظلمات بعضها فوق بعض)؟! أم أننا في غابة من الغابات المشتجرةِ الأغصان فلا ينفذ إليها ضوء؟!!

كان القات عال العال! وصلنا منطقة الريس الساعة الواحدة ليلا تقريبا وأنا حازق (أجلكم الله)!

– هيا يا أخي وصلنا الريس. (قال السائق وهو يتفقد أغراض الركاب)

مباشرة قلت له: غلطان هذه ليست الريس! (بعد أن جلتُ بعينيّ في أرجاء المكان).

– ماذا؟ أتعلمني أنت عن الريس؟!

– بدأ طعم القات يتلون مرارة. قلت لك ليست هذه الريس!

– يا فلان! ما اسم هذه المنطقة؟ (السائق لصديقه)

– ومن لا يعرف هذه المنطقة إنها الريس! (صديقه مجيبا باستغراب)

– هـا! هـل اقتنعـت الآن (السـواق قـائلا بصـورة سـاخرة)؟! كنـت في السـابعة عشـر مـن عمـري تقريبًـا.. ولمـا رآني السـائق وصـاحبه أنـه قـد شـحب لـوني! أخذتـه الشـفقة فأخـذ يسـألني مـن أنـت؟ ومـا اسمـك؟ ومـا بلادك؟ وماذا تفعل هنا؟!

كانـت الأشـجار العملاقـة الكثـيرة والكثيفـة قـد تحولـت في خيـالي إلى أمـوات خرجـوا تلـك السـاعة مـن قبـورهم، والأكفـان تتطـاير مـن علـى أكتافهم!

في تلك الفترة كانت مواسم الانتخابات النيابية أعتقد أنها انتخابات عام 93 أخذني السائق إلى مقر اللجنة الانتخابية.

– ما خبرك؟

قصصتُ لهم القصة!

– (صاح الجميع) أنت تريد ريس أيفوع!! يا للمسكين! إن بينك وبين ما تصبوهُ بُعدَ المشرقين!

– وما الحل؟

– الحل أن تنام وتنطلق في الفجر إلى السوق القريب من هنا وتأخذ سيارة! لم يكن في جيبي من المال شيئا! ألم أقل لكم أني كنتُ منتّفًا؟! عندما خرجت من القرية ووصلت مدينة تعز اشتريت بالمال الذي معي كتابين من تلك المكتبات التي تفترش الشارع. لأني قلت: خلاص سأصل إلى سكن المدرسين وهناك آكل وأشرب! لا أزال أذكر أسماء الكتابين: عقيدة المسلم للغزالي وكتاب آخر: أهوال القبر وعذابه!

طلع الصباح.. فقررت أن أسافر على قدمي إلى الرِّيس! لأني على عادة أهل قريتي نتمنى أن تنشق الأرض وتبلعنا على أن نطلب المساعدة من غريب.

تحوّلتُ إلى بعير!

أخذتُ أخبط في تلك الوهاد والطرق من الساعة الثالثة والنصف بعد صلاة الفجر من ليالي الشتاء القارس أخبط خبط عشواء. ألهمني الله في مصيبتي تلك التسبيح! تذكرت قول النبي صلى الله عليه وسلم: من قال حين يصبح أو يمسي: حسبي الله لا إله إلا هو عليه توكلت وهو رب العرش العظيم سبع مرات كفاه الله ما أهمه من أمور الدنيا والآخرة أو كما قال صلى الله عليه وسلم!.. أين التعب؟ لا تعب! عبرتُ سوائل من الماء النمير لا تصل إليها سيارة.. وهي من الجمال ما يعجز سحبان

في فصاحته، وامرؤ القيس في شاعريته عن الوصف! تسلقت جبالا لو أني في بطولة عالمية لكنتُ البطل المنتظر في تسلق الجبال! رأيتُ من الثعابين ما لا يَعقل معها عقل! سرتُ شِعابا لا يسلكها إلا المجانين! إن كانت هناك طرقا للسيارات قد مَهَدَتْها مع الأيام، وإن كانت هناك طرق للمارّة قد عبّدتها الأقدام، فإني قد اخترعتُ لهم طرقا جديدة لا تصلح للسيارات ولا لبني آدم حتى! كنت أفكر وأنا أمشي لاهثا.. متصبب العرق.. متفتح المناخير.. في حديث من أحاديث المصطفى صلى الله عليه وسلم في الصحيح: (إن الله زوى لي الأرض ...) ورحتُ أُجدِّفُ في معاني: زوى وطوى، لأن في دعاء السفر المعروف: (اللهم هوّن علينا سفرنا هذا واطوِ عنا بعده..) في تلك الأيام لم أكن قد حفظت دعاء السفر بعد!!

الثانية عشرة ظهرا.. نزلتُ كالصقر قمة جبل شاهق! لو خيروني في اختيار اسم لهذا الجبل لأطلقت عليه: أبو الجبال على وزن أبو صياح! أبو الجبال هذا هو جبل واحد لكنه مثل حيوان الكنغر تظنه يمشي وحده وفي كيسه خمسة كناغر! كان يضم مجموعة من الجبال التي هي دونه في الضخامة والجلال! أحيانا كان لساني ينطلق بالسؤال فأسأل، وأحيانا يلتصق بسقف حلقي من الخجل! كان المطلوب مني حسب وصف المارّة، أن أنزل أسفل الوادي حيث الأنهار والعيون وأشجار

العمب (المانجو) ثم أصعد جبلا آخر موازيا لأبي الجبال.. لو كنتَ أسفل الوادي ورفعت رأسك عاليا.. لرأيت فارسين عظيمين.. هناك في السماء.. متقابلين وجها لوجه يهمّان بالمبارزة! تماما كبرجي الـ KLCC في ماليزيا! وهل أبو الجبال هذا جبلا؟! ألا يوجد في اللغة اسم أكبر؟!! كان عليّ أن أقف! ولكن ماذا أقول؟ بلغ بي الإنهاك مبلغه فوقفت على حافة جبل فقررت أن أقفز إلى هضبة أسفل منها صغيرة! هي في الحقيقة هاوية، ولكنها كانت تبدو في ذهني الشيطاني صغيرة جدًا!

وما عليّ لو قفزتُ؟ أتظنونني أمزح؟! ثنيت قدمي وبدأت أزحف على صدري رويدًا رويدًا.. انحنيتُ برأسي قليلا.. متأكدا من ثبات قدمي حتى لا أهوي على رأسي.. كان قلبي! لا أقول تخفق نبضاته، وإنما أقول أصيبت نبضاته بالهستيريا! كنتُ كشجرة الصنوبر تميل برأسها منحنيةً للعاصفة، وأقدامها راسخة في الأرض! رأيتُ أسفل مني صخرة ملساء عظيمة.. يتدحرج عليها شلال دافق من المياه كأنها تيارٌ من الفضة! لا أعلم منبعه بالضبط، فالجبال متداخلة في بعضها كأنها أشجار غابة! قلت في نفسي: لم لا أقفز كأبطال هوليود كونان ورامبو؟!!! استعنت بالله! كان في يديّ كتابان كما قلت لكم! كتاب عقيدة المسلم باللون

البرتقالي، وكتاب عذاب القبر وأهواله باللون البنفسجي! وجاء وقت الانبطاح! انبطاااااااااااح! فانبطحت أرضا.. حشرتُ يدي بين الصخور.. ألقيتُ بقدميّ نحو الهوة.. مستعدا للقفز! أقدامي متدلية الآن! لا تقف على شيء، لكن لا يزال جزء من صدري ثابت في الأعلى!

نظرت نظرة خاطفة للأسفل.. صوت الشلال وهو يرتطم بالصخور، كأن رجع الصوت برقٌ يغمغمُ وراء السحاب الملتفّ! عندها بدت لي المسافة بعيدة جدًا!!

نظرتُ إلى إحدى يديّ.. كان في اليد اليمنى كتاب عقيدة المسلم، وفي يدي الأخرى كتاب أهوال القبر وعذابه، ما زلت مصرًّا على التمسك بهما!! وأخذت تتصارع في ذهني وأمام عيني صورتان متناقضتان عجيبتان!

تمثّل لي كتاب عقيدة المسلم على هيئة فارس ملثّم.. قوي الجَنان.. شديد البأس وهو يقول:

أيُّ يوميَّ من الموت أفر؟
يوم لا يُقدر أو يوم قُدر

يــوم لا يقــدر لا أحــذرهُ

ومن المقدور لا ينجو الحذر

فتأخذني الحماسة.. فأهمُّ بالقفز، فيتمثل لي الكتاب الآخر عذاب القبر وأهواله على صورة رجل حكيم.. يرتدي عمامة بيضاء وثوبا أبيض عليه مشلحٌ أبيض، يقرطق بمسبحته قائلا: أين ستذهب يا ولدي:

هـل علمـتَ المـوتَ وسـكرته، والقـبر وضـمتَه، ومنكـر ونكـير، ولفـحٍ وسـعير؟! فتأخـذني هيبـة المـوت وجلالـه، فأعـدل عـن قـراري واختـار السلامة فأهمُّ بالصعود! فيبرز لي الفارس الملثم، وقد أماط اللثام عن وجهه هذه المرة، وهو يقول ملوّحا بيديه في الهواء:

فصبرا في مجال الموت صبرا

فـما نيل الخلود بمتسطاعِ

فأرى في لهجته نبرة صدق! وتسكن الأصوات من حولي فلا أسمع شيئا! فـأقول لقـد نطـق بالحـق! لـذا أجابتـه الكائنـات خاشـعة، فـأهمّ بالقفـز! فيبـادرني الشـيخ الجليـل: يا بـني تمهـل.. يا بـني تمهـل! والله لقـد ارتحلـت الدنيا عنى مدبرة، وارتحلتِ الآخرة إليّ مقبلة، وما أبغي غشك! فاسمع

من ناصح أمين: إن القبر له أهوال.. إن أطبق عليك فليس ثمة منقذ سوى عملك أنت مازلت صغيرا! هل تضمن لك عملا يدرأ عنك النار؟! فأحس ضيقا في صدري وأقول لعل هذه علامة على صدق هذا الشيخ ولا أزال بينهما على هذا الحال من التجاذب والتنافر .. مرة أصعد ومرة أنزل.. أصعد أنزل، كأنني الطائر القلق! حتى آثرت السلامة فصعدتُ.. تدحرجت بعض الحصى وذرات التراب نحو الجرف.. ولم أسمع لها صوتا.. فعلمتُ أن الله قد أنقذني بنصائح الشيخ! وما هي إلا لحظات حتى أقبلت راعية صغيرة ترعى أغنامها، فرميت الفارس الملثم والشيخ الجليل وراء ظهري، وانطلقت كسهم من ضوء إلى طريق الأقدام حتى نزلت الوادي أها.. ها قد نزلتُ الوادي أخيرًا! ولكن! بقيت آخر مرحلة وأصل إلى مطلوبي من (الريس) هبطت سائلة بين جبلين عظيمين من جبال الدنيا.. سائلة تنبع عيون الماء فيها من الأرض كالنوافير، الصخور الملساء المندفعة من الجبال قد تناثرت في كل مكان جراء السيول.. اتخذ الناس لهم حقولا ومزارع على جوانب السائلة بعد أن أعملوا فيها قليلا من الردم، مما جعلها ترتفع قليلا عن مجرى السيل! أشجار العمب (المانجو) في كل مكان، أشجار البن تعبق بالروائح الزكية.. اتخذ البنات من الصخور المتناثرة حبل غسيل.. فأخذن ينشرن الملابس على ظهورها في صخب من الأحاديث الناعمة وأهازيج

الفلاحين وحفيف الأشجار! كان ذلك الوادي من جنان الله يسمى (بني ورد) لو كان الجو رجلا لرأيته مترنّحا كالسكران من عبق ذلك الوادي!!

شرعتُ في طريقي صاعدا قمة الجبل بعد أن استجممتُ وشربت من تلك العيون الفوّارة.. فكأني نشطتُ من عقال! لم يأخذ تسلق الجبل مني جهدا كبيرا، لأني وجدتُ رفيقا يريد ما أريد من الريس.. مجرد ساعة ونصف فقط!! وصلتُ منطقة تسمى (الحقل).. في منطقة الحقل هذه، كان فيها مجموعة من المدرسين من أرض المخلاف وشرعب، وكان من ضمن المدرسين أولئك ابن خالتي صديقي ورفيق عمري فواز الدعيس وابن خالتي الأستاذ محمد منصر والأستاذ مصطفى علي سرحان.. وآخرون.. أدباء كبار، وصلتُ تقريبا الساعة الثانية ظهرا، وقصصتُ عليهم القصة! طبعا لم يعرف أحدٌ من المدرسين الحدودَ التي جئتُ منها! وما أدراهم بحدود السماء؟! فكان أن استعانوا بأهل الخبرة من سكان المنطقة التي يدرسون فيها، فلما علم أهل المنطقة بالأمر، فغروا أفواههم من الهول! في ذلك اليوم.. لقبني الناس: الشبيهُ بالناقة!

أيام مرت كالأحلام!

ماليزيا

2019

زيارة ملك!

بعد حبسة دامت خمسة أشهر. وقفنا أخيرًا بقلوبنا قبل أقدامنا على ساحل البحر!. كأنا لقينا فيه أوطاننا التي نهبت وأحلامنا التي ضاعت.

البحر أبو اليتامى. موائد السحاب وربيع الشاعرية ومنتجع الفاتنات وملاعب قوارب الأطفال الصغيرة.

يهب النسيم رطبا نديا متوشحًا بأصداء الراحلين ومواويل الملَّاحين.

ما الذي ينتاب مرهف الحس.. صقيل الحشا.. ظاعن في السفر.. طاعن في السهر.. عندما يطل بقامته على هذه السموات الممتدة على سطح الماء؟

كل شيء مخضلٌّ بالزرقة.

الزرقة في نغمات الطيور المحلقة.. الزرقة في نظرات العيون المحدقة .. الزرقة كتاب سماويّ في يد النهارْ.. في تجاويف الأحاسيس وتضاعيف الأفكار، البحر وهو يغمغم كأنه زئير تنين أسطوري قديم.. مكتنز بالأهوال والغموض، يزأر فإذا الذي في وجدانات قلوبنا يسري إلى أقدامنا، فإذا هي على الصخور ثابتة لا تريم.

أيها الملك الجبار!

يامن تستأذن الله كل يوم أن تهيج على الطغاة فتثل عروشهم وتبتلع ظلماتهم. فيقول الله لك: لعل تائبا يقبل أو مسرفا ينتهي.

اِيذن لهذا الغريب أن يرتمي على أعتابك فيبثك صلواته ونجاويه.

أيُّها البحرُ "يابو اليتامى" أجبني

وقد ألهبتك رياحُ الحنينْ

كلَّ يومٍ على صفحاتك كان السَّحابُ

يُدوِّنُ شعرًا حزين

يتراءى على صخر روحي صهيل الحروفِ

ولكنها لا تبين

لستُ أدري! تناهيدُنا تلك عادتْ

إلينا هديرًا بمرِّ السنين؟

كيف رحتَ تُرتِّلُ حزنَ البرايا

صراخًا.. وَلَمَّا تضق بالأنين؟!

كان البحر مزدحمًا بالبشر ككل مرة. لكنه بعد أيام الحظر المضنية.. كان مختلفًا.. لقد قابلنا البحر ببحر أعمق وجعًا وأبعد احتراقًا. ربما رأيت في وجوه الناس ما يُرى بوجهي من تلاويح الغربة وتباريح السنين فظننت أن الناس مثلي بلا وطن!

من يدري بماذا تومض هواجس الشعراء الغرباء وشطحات خيالاتهم؟

إن البحر كالخيل يعرف صاحبه. ما أكثر ما وصف الشعراء الخيل وافتتنوا بجماله وتفننوا بأوصافه. لكن المتنبي أشار بفطنة إلى أن أفكارًا وطباعًا ومشاعر لا يدركها أحدٌ حيال الخيل إلا من كان خيّالًا فارسًا.. نشأت بينه وبين الخيل على طول الصحبة شجنة وداد، وعهد وفاء.

ويــومٍ كليــل العاشــقين كَمَنتُــهُ
أراقــب فيــه الشــمس أيان تغــربُ

وعيـــني إلى أذنيَّ أَغَـــرَّ كأنـــهُ
مــن الليــل باقٍ بــين عينيــه كوكــبُ

لــه فضــلةٌ عــن جســمه في إهابــه
تجيء على صدر رحيب وتـذهبُ

شــققتُ بــه الظلمــاء أُدني عنانــهُ
فيطغــى وأرخيــه مــرارا فيلعــبُ

وأصــرع أيَّ الــوحش قفَّيتــهُ بــه
وأنــزل عنــه مثلــه حــين أركــبُ

ومــا الخيــل الا كالصــديق قليلــة
وان كثـرت في عـين مـن لا يجـربُ

إذا لم تشــاهد غــير حســن شِـيَاتها
وأعضــائها فالحســن عنــك مغيــبُ

لقد أطلت في سرد الأبيات وإن كان الشاهد من هذا كله هو البيت الذي يقول فيه: وما الخيل إلا كالصديق قليلةٌ.. وإن كثرت في عين من لا يجرّبُ. ولكن إشارة المتنبي إلى أخلاق الخيل وتجاوزه بالقارئ قصدًا شكل الخيل ومظهره إلى طبائعها النبيلة أخذ مني ما رأيتم.

وإني قد صحبت البحر سنين طويلة. البحر الأحمر والخليج العربي عندما زرت مدينة جدة وانتقلت إلى مدينة الجبيل الصناعية.. وعلى جزيرة " جوا " جنوب شرق الهند.. المطلة على المحيط الهادي والآن في ماليزيا.. في ولاية سيلانجور على ذات الفضاء الأزرق.

إنه نوع من القلق الدائم. قلق الأدباء الفطري. الأدباء قلقون ما في ذلك شك كما يقول الدكتور / طه حسين وهو يتحدث في كتابه خصوم ونقد عن مشكلات أدبنا الحديث.

وكما قال المتنبي رحمة الله عليه من قبل:

وكذا تطلع البدورُ علينا

وكذا تقلق البحور العظامُ

وما إن أقف على أطراف البحر حتى يصيخ البحر لأنغام قلبي الدامية وينسى كل من حوله من البشر وينصب وجهه لوجهي ويوحي لي وما هي إلا لحظات حتى تخب الرياح اللينة على رماله الزرقاء كأنها نابعة من خواطري وإذا بغلائل من أمواج تصعد من أعماق البحر كأنها زفرة مصدور بين جنبي قتلته صبرًا وشعرا. فإذا الأمواج تتثنى وتتكسر كأنها حسان المتنبي العزيزات برزن من بيوتهن:

حسانُ التثنِّي ينقشُ الوَشْيُ مثلَه

إذا مِسْنَ في أجسامهنَّ النواعمِ

أحلم ذاهن الفؤاد.. يقظ العين.. يخبط بي البحر خبط عشواء.. فتتسع الرؤى وتضيق العبارة، وتذوب حدود الأشياء.. وكسهمٍ من ضوء.. يطير بيَ البحر إلى بلادي.. فأنزل على قريتي وأجثو دامعا أمام كوخ أمي أطلب منها الصفح عن غيابات الطويلة. وهي تملأ البيت بالصراخ: لقد عاد ولدي.. عاد ولدي.

أنا حزين حتى نهاية العالم يا أمي!

احتلوا الأرض.. فلا حكومة ولا تعليم.

خانت الأحزاب وسقطت جميع الأقنعة.. ماذا سأفعل إن عدت اليمن؟

وإن كنت لأشعر أن البحر يود لو يتحول إلى راحة يد فيلطم بها وجوه المترفين الذين جاؤوا إلى الشاطئ عصرًا للمباهاة بالأفخاذ العارية، والأجساد الناعمة، فيذودهم عن هذا اليماني البائس كي يأخذ راحته بالبكاء، لأن البكاء على الملأ لون من ألوان الكذب. قريب من هذا المعنى قول أبي ذؤيب الهذلي يوم مني بفقد أبناءه الستة في يوم واحد.. قيل إنهم شربوا من وعاء شربت منه حيّة سامّة. فزفر فؤاده بقصيدة هي من الألم الإنساني الأيقونة.. تحيل الصخر رمادًا وتحيل الرماد أطيافًا تصرخ في البوادي والتي يقول في مطلعها:

أمن المنون وريبها تتوجّعُ؟

والدهر ليس بمعتبٍ من يجزعُ

أتتوجع من طعنات الموت وتحسب أن الدهر سيرثي لحالك؟ والدهر هنا الأيام والناس وأوضاعهم.

إلى أن يقول:

وتجـلُّـدي للـشَّـامتين أريـهـمُ

أني لريب الدهر لا أتضعضعُ

نعم. كنت أتلهف لخلوة بالبحر لكن.. هيهات. امتلأ الشاطئ بالناس.

حدقت في عينيه فقال بصوته الأجش: هات. فقلت:

يا أبا اليُتمِ والليلِ "والإغترابْ"

هل أصابك من زوْرتي ما أصاب؟

ما أتيتُ لألقي عليك همومي

فكيفَ ملأتَ صِماخي عتابْ؟

هل شَكَتْكَ رمالُ الخطى قبْلَ آتِي ارْتِحَالي

وزلزلتي في العذاب؟

كم حرثتُ الخطى تلك بالصبر صبرًا

وأسقيتها من جبين الهضاب

لست أدري وقد مرَّ قبلي أناسٌ

أما زال في الرّملِ وشمُ الغياب؟!

هززت قامتي تجاه الحديقة.. ومشيت ولا تزال أصوات الأمواج تطاردني.

في مطار الهند

كانت ستحدث مشكلة كبيرة لي في مطار الهند عندما ذهبت إليها بغرض تعلم اللغة الإنجليزية! لم يفهموا ما أقول ولم أفهم ما يقولون! الطابور طويل عريض هم يؤشرون بالأيدي لكي يفهموني وأنا أفعل كذلك، من يرانا من بعيد سيظن أننا نرقص!

كيف حدث هذا؟

دعوني أخبركم قصة سفري إلى الهند. ذات يوم في السعودية خزّنَّا (تناولنا القات) أنا وصديق لي، كان هذا الصديق قد أخذ دورة تدريبية في التنمية البشرية، فقال وهو يتناول ورق القات بلهجة تُبَعَّيَّة مُلوكيّة: لابد أن تكتب قصة أحلامك. أين ستكون بعد خمسة آلاف سنة.

احلم ولا تضع لأحلامك سقفًا. طبعاً، أنا إنسان عاطفي جدا. كتبت ثلاثين ورقة وأوشكت أن أتصل على دور نشر! ما هذا؟ هذه لم تعد كتابة خُطَّة. هذه أصبحت حكايات ألف ليلة وليلة!

حين بدأت بفتح صندوق أحلامي الصغير. تذكرت أنه كان لي حلم عندما كنت في الصف الخامس الابتدائي. دخلت إحدى غرف البيت غرفة تشبه الخزانة الكبيرة وصعدت على الفرش والأغراض وبدأت أكتب على الجدران حروف اللغة الانجليزية. رغم أن اللغة الانجليزية في السعودية كانت تبدأ في المقررات الدراسية مع الصف الأول المتوسط. كان أبي يشاهد الأفلام الأمريكية فأحببت أن أتعلم لغة البطل الذي لا يهزم. قلت: ها. ها قد وجدت حلمي. كتبت أنه لابد أن أحصل على هذه اللغة فهي لغة النجاح. ثم قال لي صديقي: بعد أن تكتب الحلم عليك أن تكتب كيف يمكنك الوصول إليه. بدأت أكتب: ضرورة الالتحاق بمعهد لتعلم اللغة. تناقشنا. ولكن التعليم في بيئة عربية لا يجدي. " أنا لدي صديق من حضرموت سافر إلى الهند والآن قدهو يرطن رطين " قال صديقي. ثم أضاف: الهند!! يا للروعة! طبعا في أذهاننا الكثير من مناظر الطبيعة في الهند النمور والفيلة وملكات الجمال وممثلين أبطال. انفتحت أساريري واتسعت أشداقي. بعد أن أنهينا التخزينة ذهب صديقي إلى بيته ولكن.. جافى عيوني النوم كما تقول أم

كلثوم. بعد سنوات من تلك التخزينة قررت الذهاب إلى الهند. تواصلت مع مكتب في جدة ورتب لي سكنا عائليًا وحلقت فوق السحاب من الدمام إلى الهند.

عندما تمر من جنبك مضيفة الطائرة القطرية عليك أن تشهّد وتُكبّر! وزَّعت المضيفاتُ علينا أوراقا، مكتوبة باللغة الانجليزية، رأيت الناس يبحثون عن أقلام ليملأوا الأوراق، سُقِط في يدي! لم أعرف ماذا أفعل؟ كل الطائرة هنود. تململت في مكاني كأني حصر، أجلَّكم الله. اِنتبه الناسُ في المقعد خلفي، والناس الذي على الجانب الأيسر، وأخذوا ينظرون إليّ! يبدو أني كنتُ أصرخ! جاء أحد الهنود الذين عاشوا في السعودية ساعدني.

قال لي: "مازا" أكتب؟ قلتُ: سجِّل أنا يمني.

ملأنا الورقة، لكنه لم يعرف عنواني في الهند، وهذه النقطة أهم نقطة. أين ستسكن في الهند؟

أكثر من نصف ساعة أفهمهم بالإشارة وهم لا يفهمون!!

كان الموظف يخرج قارورة الخمر ويشرب من شدة الغضب!

يئسوا مني!! أشاروا: ادخل. "الله لا ردَّك".

تعرفت في الهند على أصدقاء من السودان. تضعهم على الجرح فيطيب الجرح. لكن بعد أن كدت أموت من الجوع!! أسبوع كامل لم أقدر على الخروج إلى الشارع من شدة الخجل! العائلة كانت في الدور الأول عبارة عن امرأة عجوز، وزوجها، وابنتها الطبيبة في ريعانة الصبا. لكن أبتْ عِزَّتي الحِمْيريَّة أن أطلب حتى كأس ماء! رأيت النجوم في عزِّ الظهر، ولم أقدر على فتح فمي. كلما تشجعت فنزلت أجاهد نفسي كي أقول لهم أني بلا طعام منذ ثلاث تخرج الكلمة من فمي: Good فتشير المرأة العجوز بيدها إلى الشارع، عرفتُ فيما بعد من صديقي السوداني، أنها تقول لي: يا بني حرام عليك اخرج شم هوا في بقالة قريبة منا، مكثت شهرا وفيزتي لمدة سنة كاملة. حدث ظرف فرجعت اليمن ثم أوشكت الفيزة السعودية على الانتهاء، نصحني الأهل قالوا السعودية لقمة العيش أولى فرجعت.

مكثنا في السعودية تقريبًا أربع سنوات ثم حدثت التغييرات الاقتصادية لم نستطع التأقلم مع الوضع الجديد، فغادرت السعودية مكرهًا إلى ماليزيا فكان لابد أن أتعلم اللغة الانجليزية، فالتحقت بمعهد. في تلك الفترة كنت أستعين بمدرسين للغة الانجليزية على اليوتيوب، لأن المدرسين في

المعهد كانوا من بريطانيا وأمريكا وكندا، وكان في الفصل معنا بنات قرويات من إيران! فلم أقدر على التركيز، كانت الحصة تمضي وأنا أنسج في خيالي أبياتا غزلية حول العيون والأنوف. في اليوتيوب وفرة هائلة من المعلمين المميزين عرباً وأجانب لمن يمتلك همة في تعلم اللغة. من مصر من سوريا من السعودية في قمة الروعة. لكني لم أكن أتوقع أن يكون هناك مدرس مبدع ومميز للغة الانجليزية من اليمن! هو المعلم الشاب عشق للغة الانجليزية واطلاع على كل جديد. استفدت منه كثيرا. وكم كانت مفاجأتي عندما وجدته في قائمة أصدقائي على الفيسبوك!

كم هي اليمن عظيمة.. بتربتها طيبة.. بشعبها كريمة.. بهوائها نقية، من أيام اليمن الصعبة يصنع شبابها المستحيل.. في ظلمات لياليها الحالكة يفتح شبابها نوافذ لمدينة الغد.

قبس من وحي الذّكريات

لقد قيل في المثل العفريتي: من يطلَّبْ الجن يركبوه! ما القصة؟! استهدوا بالله لأقص عليكم قصةً لا تحلو إلا بذكر الرحمن والصلاة والسلام على خير الأنام.

قرية من تلك القرى التي لا يمكن أن تَرى وأنت فيها غير السماء والجبال!

تتخللها بيوت متناثرة كالنجوم.. تنبسط عند أقدامها بعض المزارع والأودية.

قريتي تسمّى المسانح من أرض المخلاف عزلة القفاعة.

المسانح كما يقول ابن عبد البرّ مشتقّة من اسم الطيور السّوانح.. يقولون: جرت الطير سُنُحًا من باب التفاؤل إذا طارت الطير تجاه اليمين.

كانت في القديم على طريق التجارة والقوافل وتحفظ الذاكرة الشعبية أبياتا للأعشى قيس حين مرّ بها قائلا[1]:

ما بلدةٌ من غمامِ الفجر طالعةٌ
كأنها روضةٌ بالنورِ تكتحلُ؟

لما نزلنا على غيطانها يمنٌ
قال القفاعيُّ: إني السهل والجبلُ

فلا وربِّ السُّهى ما رفُّ حاجبُهُ
إلا ونارُ الدجى والجود تشتعلُ

[1] من وحي الخيال والأبيات الشعرية لي

كنا فترة التسعينات كشباب لا يملك من الدنيا إلا عيونًا جاحظة وقلوبًا حالمة وجيوبًا فارغةً.. نحب الاجتماعات وأحاديث كبار السنّ.

ولئنْ كان في كل بيت كوزُ ماءٍ للشرب.. فأنا كان كوز قلبي فواز أحمد سرحان ابن خالتي!

لا أدري إن كانت هذه الكلمة الكُوزية ستجعله يغضب أو يضحك! لكن كل ما أقصده أنه لم يكن لقلبي حياة غيره.

كانت قريتنا تمتاز بكثرة المغتربين في السعودية.

وكنا عندما نرى المغتربين على سياراتهم الفارهة يُعدّون العدّة للذهاب إلى منطقة على مشارف مدينة الحالمة (تعِز) فيها حمّامُ بخار طبيعي اسمها "كَرِشْ" وكنا عندما نرى الأطفال والنساء يتقافزون من الفرح، وبأيديهم حقائب الملابس والمناشف.. كنا نتحرّق شوقًا لتلك المدينة الأسطورية.

كنا نهتف في أعماقنا: خذونا معكم بحجر الله!

وكنا نتساءل في خبث بريء: لماذا يأخذون معهم بطانيات أبو تفاحة؟!

كان كبار السّن يقولون: "أن مياه حمّام كرِش تُجلي الذَّحلْ وتعيد الأمل وتجعل الحامل يرقص كالحَجَلْ".[1]

هكذا كانوا يقولون: أن من ذهب إلى حمّام كرِش يرجع شباب.. لا روماتيزم ولا هبوط !

ثم دارت الأيام كما تقول أم كلثوم، وكبرت أحلامنا معنا.. ثم إني انتقلتُ إلى رحمة الله في حقل التدريس، وبدأت أجني الثروة!! يعني تخزينة يوم!

استلمت أول راتب لي بعد ستة شهور 7000 ألف ريال يمني! ذهبنا مرة إلى سوق القات في "الأشبط". والأشبط هذا كان كلبًا بخصية واحدة بحجم رأس الغراب الأبيض فسمّيَ السوق باسمه!!!

ونحن في التخزينة النُّوّاسية أخذنا نتغزل بجسم بائعة القات الصَّبِريّة – الصَّبِريّة بكسر الطاء المثلّثة –كنا وقتها نعيد ترتيب معجم الجنون العريق في لوكندة في مدينة تعز! ونحن نطل من وراء النوافذ الزجاجية على شارع المستشفى، دقَّ مِرفق يدي على الجدار بصورة لا إرادية فتألمت قليلًا.. لاحظ ذلك فواز فورًا.. ثم أخذ يحدثني عن ألم المفاصل وأشكاله وأخذ في سرد الحكايات، وكيف أنه ليس من الضرورة أن يصيب الروماتيزم

[1] ولكني صغتُها بأسلوبي.

كبار السن! فقد يصيب الروماتيزم الشباب أيضًا! كنت أدرك إلامَ يُلمِّحْ! ثم رفع ركبته في وجهي فجأة وقال: حتى أنا أشعر بألم.

فقررنا أن نذهب إلى كرِش لنتعالج من ألم المفاصل الفظيع!

استقلّينا في اليوم التالي سيارة أجرة.. ونحن في فورة الحماسة لا نملك إلا ملابسنا!! لا حقائب ولا مناشف!!!

دخلنا وسط وادي رمليّ.. أين نحن؟ قالوا: في الطريق إلى كرِش. كنت أتوقع أن كرِش هذا سيكون بركان على قمة جبل كبير! لأنه أول ما يطرأ على أذهاننا عند نطق كلمة: كرِش هو كرش المسؤول المنتفخ! لكن تفاجأنا أن كرِش هذا عبارة عن عشش في قعر وادي سحيق!!!

نسينا كل شيء في غمرة تذكرنا فرحة أطفال المغتربين في القرية وهم عائدون من كرِش!

كان هذا الحمّام عبارة عن أحواض مثل أحواض السمك.. حوض للماء الحار وآخر للدافئ، و... وصلى الله وبارك!

عندما خرجنا من الحمّامْ.. ضربناها سيرًا على الأقدامْ.. حتى وصلنا طرف الشارع.. كانت ملابسنا تنضح بالماء! قال فواز والريح تصفعه حينا وتركلني حينًا: نسينا المناشف!

لكن المشكلة لا تكمن هنا!!

بطبيعة الحال المسألة فيها خطورة.. فالإنسان عندما يخرج من حوض ماء حار إلى وجه الريح مباشرة قد يصاب بشلل!

لكن أيضا: ليست المشكلة هنا! شاء الله أن يعطينا درسًا في الأخلاق.. انتظرنا طويلا فما وقفت لنا إلا سيارة هايلوكس.

ركبنا في الخلف وأسلمت السيارة عنانها للجن والعفاريت.. طارت مع الريح، والريح تخترق أجسادنا كأنها السكاكين!

كنا سنأكل بعضنا من شدة البرد! وما هي إلا لحظات.. " وشُنّي المطر يا سحابة" [1]!! غطت السحاب رؤوس الجبال وحطت جام غضبها فوق رؤوسنا! ووالله ما طرأ في بالنا تلك اللحظة إلا قصة نوح عليه السلام مع ابنه يوم فار التنّور وغرقت الأرض بالماء!

طال الطريق.. السيارة لا تمشي! مش معقول! لا لا.. إنها تمشي!

ستنزلق السيارة إذا أسرعت ولذلك فهي تمشي في المطر كما يمشي الوَجِي الوَحِلُ. وهل كان ذلك مطرًا؟ إنه طوفان يا رجل!

---

[1] أغنية يمنية

كنت أسمع فواز يقرأ سورة تبارك الذي بيده الملك وهو على كل شيء قدير. كاد يُغمى عليّ من الضحك! ما وصلنا تعز إلا ونحن لا نرى من شدة البرد شيئًا. استلمنا جوع شديد.. قال فواز: أنا افدالك "نشتي فاصوليا" لا أدري! بدلًا من أن أقول له: وهو كذلك، خرجت من فمي كلمة: بَطَّانيَّة!

ذرعنا الطرقات ونحن نبحث عن فاصوليا.. كان الوقت على العشاء.. ذهبنا إلى بائعة القات الصَّبِريّة ثانية! يا إلهي! يا لتلك العيون التي تجعلك تشعر بالحر في عز الشتاء الزمهرير! تدفّأنا بمياه تلك العيون.. قليلًا ثم عدنا إلى البيت.

من عادة فواز أنه إذا ضربت حمّة القات في مخيخه.. استلم المجلس فلا أظرف من لسانه ولا أذكى من جنانه ولا أغزر من فكرته ولا أحلى من شوارده قال بلهجته المخلافيّة: "كيف يا طارق؟ كان بنا قليل وجع في الركبة الآن سنصاب بالروماتيزم بحق وحقيقة".

إلى توأم روحي.. ورفيق صباي.. قبس من وحي الذكريات.

درس في الكناية!!

كنت كلما أتعرض للضرب وأنا صغير كان أبي يُولِّي عني منتصرًا وهو يردد: "جلدك يحكَّكْ" عندما كبرت ودرست البلاغة عرفت أن عبارة: جلدك يحكَّكْ! لا يقصد به المعنى الحرفي، وإنما يقصد به التعبير عن شيء آخر ملابس له وقريب منه.

ولئن كان البلاغيون يدركون ذلك تذوّقًا خياليًا فقد ذقته ألمًا مبرحًا.. عشته واقعًا يوميًا. ولئن كان البلاغيون في باب الكناية منظِّرين لا غير، فإن أبي كان من أعظم البلغاء التطبيقيين تليه بدرجة: أمي حفظهما الله!

ولأني شاعر، والشعر يجري على لساني، فقد خامرتني هذه العبارة الكنائيّة. حمدت الله على نعمة البلاغة! صحيح أننا ضعاف أمام العرب

الفصحاء القدامى، إلا أن البلاغة تسكن طبائعنا وجوارحنا، لا فرق بيننا وبينهم! بل إننا قد نفوقهم بلاغة!! يتجلى ذلك في آثار العض اللامع والخدش النازف في أجسادنا الصغيرة!

صرت اليوم مع الحجر الصّحي في البيت وضجة الأبناء أرددها بين الحين والحين: جلدك يحكّك يا زبط! حتى لا أخفيكم أني صرت أشعر بزهو عربيّ عندما أتلفظ بها!

أجل أجل! إن فيها معنى جميلًا! فالمعنى الحرفي لها أن الجلد عندما تتراكم عليه الأوساخ يبدأ بالقرص الذي لا يهدأ إلا بالحكّ، والمعنى المجازي لها أنه كلما انحرف سلوكك عن الجادّة واتسخ بفعل الأعمال الشيطانية وجد من يعيد له رونقه وصفاءه وبهاءه عن طريق الضرب أو الرفس أو القفز البهلواني!

هل تعلمون؟!

حتى كلمة رمضان فيها معنىً كنائيّ!

كيف؟

رمضان مشتق من كلمة الرّمضاء والرمضاء هي الأرض الشديدة الحرارة بفعل الشمس.

ولكن ما علاقة معناها الحرفي بالمعنى العبادي؟

شهر رمضان الكريم شهر الصبر والصبر حبس النفس وحبس النفس فيه مشقة وعذاب.

إنك عندما تستيقظ في نهار رمضان وتسمع أصوات معدتك تصرخ:

لا للجوع، الموت للحرمان!

ثم تشرع في أعمالك ويأخذك الجهد والحر شديد والرطوبة قاتلة، فتشعر بجفاف حلقك، وبرَّادةُ الماء عند رأسك وخيالك الأبليسيّ يصور لك بريق الماء، ولمعان الثلج، ويدفعك .. فتسري البرودة من يديك إلى أعصابك، وأنت تتملّى، وتتقمَّصُ عيناك عينيْ "توم" وهو يخطط للانقضاض على "جيري" غير أنك تستعيذ بالله، فتمتنع احتسابا لما أعدَّهُ اللهُ لك من جوائز عظيمة. الأمر بلا شك فيه مشقة.

هل سمعتم بالحديقة الرَّمضانيّة؟

أووووه! يااااااه! إيييييييهْ!

كانت الحديقة الرمضانية هذه فاكهة المجالس وعروسة الأسمار وقوافل الورود وأسواق عكاظ واستراحة الشواطئ!

كانت الحديقة مما يمتاز به رمضان القرية.

كانت الحديقة الرّمضانية آية من آيات الإبداع في الكلمة الجميلة والعبارة المسجوعة من حكم بلغية وأمثال سائرة ومواقف أدبية مضحكة واستعراضًا للأصوات الإنشادية وفقرة من فقرات إلقاء الشعر واستراحة قصيرة مع موعظة .. كانت حديقة متنوعة.

الحديقة الرمضانية لم تكن واحة في الصحراء أو مشتلًا من مشاتل النخيل أو نزهة إلى جبل صبر لا لا، وإنما كانت عبارة عن مهرجان ثقافي منوع خاص بشهر رمضان فقط، يحضره الناس بكافة انتماءاتهم الفكرية والحزبية. وتستدعى في أحيان كثيرة مكبرات الصوت. يروّج له في كل قرية. يبدأ الناس بعد صلاة التراويح بالتقاطر من القرى والتجمع والزحف إلى الديوان المحدد مسبقًا. وهناك على عتبات الديوان تتصافح القلوب وتتنضّر الوجوه بالأتاريك الكبيرة والفوانيس البرّاقة، ويأخذ الناس أماكنهم ثم بعد قيل وقال وهرج ومرج تبدأ الحديقة بنشر أكمامها العطرة. كان يلقي هذه الحديقة الرمضانية اثنان لأنها طويلة ومنوعة تستغرق ساعة وأكثر.

كنت أنا وفواز أشبه بسحرة فرعون! طبعا كان فواز القائد. كنا نتعب في الإعداد تعبًا كبيرا لا سيما ونحن بلا مراجع، ولا مكتبة ثقافية نستمد

منها. هل تعرفون التقاويم للسنوات الهجرية تلك التي التقاويم التي توضع على جدران المساجد؟! بالضبط. كانت غنية بالحكم والأمثال والأشعار. كنا نأخذ قصاصات الأوراق الصغيرة تلك، فنركب لها منقارًا وأجنحة، وننفخ فيها روح الجنون، نحمل المخزنين بأدائنا الساحر وتنويعنا في الصوت ونطير بهم!

كانت تمر الساعة، والناس لا يصدقون أنها مرت ساعة!

ونحن نرى الفرحة غامرة في وجوه الناس كنا نفرح وننسى كل التعب.

انتشرت حديقة فواز وطارق في آفاق القرى. طبعًا نحن أخذنا الفكرة من برنامج إذاعي كان يلقى من إذاعة صنعاء – أيام كانت موضة الروادي – كان هناك برنامج رائع اسمه: "أوراق ملوّنة" يلقيه مذيع ومذيعة كان المذيع عقيل الصريمي ولا أذكر اسم المذيعة الآن. نسيت أو ربما ذاكرتي تتحسس من أسماء النساء!!!

مرة حاول شابّان أن يقلدانا في إلقاء حديقة!

لكن..!!

يبدو أنه لم يكن هناك انسجام بينهما.. ليس في الكلمات.. بل لم يكن هناك انسجام روحي! إن الأرواح المسكونة بالفن إذا ائتلفت أخذت بالعقول والألباب. كذلك كنت أنا وابن خالتي فواز.

علق أخي الكبير عبد الرحمن حفظه الله على حديقة ذينك الشابّين وكان صاحب فكاهة، فقال:

في الحقيقة إنني عندما أستمع لحديقة فواز وأخي طارق أشعر بجو الحديقة.. جداول ماء تتراقص.. فراشات زاهية الألوان تطير.. أغصان يتمايل بها النسيم.

لكن عندما أسمع حديقة فلان وفلان أشعر أني بُقري مربوط عرض شجرة!!!

أيها الأحباب كنا وإياكم في درس حول الكناية!

وسلامتكم.

من وحي الأربعين

ها هي صورتي وأنا صغير.. رصد لأول صورة أطرق بها عالم المعرفة وأتعرف على شكل الحروف الأبجدية. لحظة أول دخولي المدرسة في شارع الحجون. ذلك الجبل الذي قال فيه أحد بني جرهم عندما أجلتهم بنو خزاعة من مكة:

كأن لم يكن بين الحجون إلى الصَّفا
أنيسٌ ولم يسمر بمكة سامرُ

إنها لحظة مشبعة بالرؤيا.. كتوهج قصيدة في خيالي.. يمر شريط العمر سريعًا بكل تحوّلاته ومتغيراته الفكرية والشعرية دافعًا بهذا الغلام الشاعر إلى محطته الأخيرة هناك. حيث ارتحال في حياة أخرى جديدة وسعيدة بإذن الله.

أنظر إلى هذا الغلام الصغير من علٍ! أقول:

ربما لو رآني على ما أنا عليه اليوم لأحبني كثيرًا، فأنا استطعت أن أكون حلمه الذي كان يهجس به في صمت وهو يحاور الأشجار والسيارات في الشوارع وهي تمر أمامه مسرعة، لقد كان شغوفا بالقراءة.

في الصف الرابع الابتدائي أهدى مدير مدرسة الفيصلية جوائز للطلاب بمناسبة انتهاء العام الدراسي.. فكان من نصيبي ديوان شعر للمتنبي!! لم يكن ديوانه الشعري كاملًا، وإنما كان منتخبًا من أبيات تتحدث عن الحكمة والطموح مزيَّنة بالصور والرسومات كأنه إنما أعدّ خصّيصاً للأطفال. فمثلًا:

عند قول المتنبي:

ما كل ما يتمنى المرء يدركه
تأتي الرياح بما لا تشتهي السفنُ

يرسمون صورة سفينة وسط البحر ورياح هوجاء وجزيرة صغيرة .. وهكذا دواليك على امتداد صفحات الكتاب.

طريقة تربوية ممتازة في غرس حب العربية في نفوس الطلاب وهذه الطريقة في اعتقادي تعتبر من أهم المعالجات لمشاكل التعليم لدى الطلاب والنهوض بالذائقة الجمالية في المجتمع.

كانت هناك حصة مكتبة مرة واحدة في الأسبوع، وكانت لا تقل أهميتها لدى الإدارة عن بقية الحصص، كنا ندخل المكتبة الواسعة بانتظام

وبصمت تام. كان الأستاذ متشدد في موضوع الصمت داخل المكتبة. قال الأستاذ بهدوء: هنا يا أبنائي رف القصص، فالتقيت بكليلة ودمنة وقصة الثعلب والحمامة ومالك الحزين.

في تلك السنوات كان أبي يأخذني إلى الحرم المكي في الساعة الثانية ظهرا ويرجع إليّ بعد صلاة المغرب ونمكث معا إلى صلاة العشاء.

كان جوار الحرم بيت عبد المطلب جد نبينا محمد عليه الصلاة والسلام. لازال قائما حتى اليوم في مكانه لم يتغير رغم مشاريع التوسعة. ولكنه رمِّم وزيّن وأصبح مكتبة ثقافية بثلاثة طوابق.

كان شيخنا قاسيا.. وكان يمتاز بقوة حافظة ما رأيت لها مثيلًا. لا يسمّع الطلاب لديه واحدًا واحدًا، وإنما نقدم أربعة أو خمسة دفعة واحدة وبيده العصا.. كلنا نقرأ دفعة واحدة من سور مختلفة، وهو يترنح برأسه فإذا أخطأ طالب نبهه بضربة.

كان أبي أحيانا يدخلني الحرم من باب، فأهرب إلى المكتبة من باب آخر!

لا أدري! قوة دفعتني لأن أدخل تلك المكتبة أو ربما الوقت الطويل والإحساس بالملل! ربما.

عند وضعي أول خطوة من قدمي على الدرج رفعت رأسي إلى المبنى يا للجلال! أهنا ولد الرحمة المهداة عليه الصلاة والسلام؟ المعلم الرحيم الذي ما كان يضرب الصغار؟

ولمَّا أصبح باب المكتبة وراء ظهري استقبلني عبق التاريخ فاستقبلته بكل مخاوفي وأحلامي. الغريب أنه لم يفتح أحد من الذين في المكتبة فمه! غلام صغير في مكتبة يؤمها علماء العالم الإسلامي ماذا يفعل هنا؟! لم أرتح في الطابق الأول. كتب كلها أصول دين وحديث وتفسير – ليس انتقاصاً منها معاذ الله! – صعدت إلى الطابق الثاني، فالتقيت بالبحتري، فانتشرت شياطين الجنون في الكون.

أحببته من كل قلبي. الوليد بن عبادة البحتري. شاعر الطيف والملقّب بسلاسل الذهب! كان ديوانه عبارة عن ثلاث مجلدات كبيرة. أوراقها سميكة نوعًا ما ولونها سكّريّ.

كنت أحيانا أضحك، وأنا أقرأ لأني كنت أعثر على كلمات فيها قلة أدب عندما كان يهجو شخصًا، وأنتم تعلمون نحن أبناء تربية مكة في منتصف السبعينات كنا في غاية من الأدب تجعل الشيطان يستغفر الله منّا!

أذكر أني سرقت ديوان البحتري بمجلداته الثلاثة.. السميكة الأوراق.. السكرية اللون لكن والله لا أدري من أين؟

لا أعتقد أنها من بيت النبي صلى الله عليه وسلم وإلا كنت هنئت نفسي على هذه الجرأة!

يبدو أنه كانت هناك مكتبة أخرى. الله أعلم.

عندما سافرنا أزمة الخليج وضعتها أمانة عند أحد الأصدقاء. من حضرموت / عمر أحمد باسيف. كان من أعز أصدقائي. نحن كانت الصداقة لدينا لا يعمّدها إلا معركة كبيرة –عض ولطم وشتم –. بعدها نصبح أصدقاء الروح بالروح. في أول أعدادي شربت من كأس العشق، فكتبت أول قصيدة لي. قصيدة شعبية لم يسمعها أحد من أهلي! لا أمي ولا أبي، أسمعتها / فواز بن خالتي حفظه الله، ففرح بها وشجعني رغم ما فيها من منحدرات تكاد تشبه منحدرات كابو جيراو، وارتفاعات تكاد تصل إلى قمة الهملايا! فلما استمعتني بعد نخبة القرية المثقفة (المعلمين) أشار علي الأستاذ / محمود محمد سيف بنصيحة من ذهب، وضعتني على الطريق الصحيح: اِبدأ بالشعر الجاهلي!

فتدفق تيار الشعر ولا يزال حتى اليوم.. متحديا.. منافحا.. مستمتعًا.. إلى أن يشاء الله.. فيخمد هذا الضجيج كله، ويلقي قلمي عصاه، وترقد جمجتي على يدي اليمنى تجاه القبلة.

هل سينفعني شيء من هذا كله؟!!

إن الحياة الحقيقية هناك.. تلك التي تنتظرنا بعد الموت. إنني أقف وأنا أنظر بعينين زائغتين إلى هذه الصورة في منتصف الأربعين آسفا تحترق عيني من الدموع.

أسأل الله أن يغفر لي وأن يرزقني حسن الختام.. قولوا آمين.

رمضان يجي هو ورزقه

كانت هذه الاسطوانة لا تنفك تتردد على ألسنة الشّيَّاب في القرية!

هذي النغمة كانت جديدة على أذني! فأنا ابن مكة.

كانت حارتنا في شارع التيسير عندما يهل شهر رمضان المبارك تتزين بأضواء الأتاريك الكبيرة.. إضافة إلى إنارات الشارع وكانت بسطات الحلويات الكبيرة والملوّنة تمتد أمام كل بقالة: قوارير شراب الفيمتو.. حلويات اللدّو واللّبنية والمشبّك.. تبرق البسطات بسائر الأصناف.

يرتدي شُيّاب أهل مكة الأزياء التقليدية الكوفية الذهبية من القصب وشال فخم على الكتف وعصا في اليد للعبة المزمار المعروفة..

ويصدحون بتلك المجسّات الحجازية في الصلاة والسلام على رسولنا الكريم عليه الصلاة والسلام. ثم عندما يجلسون.. ينكتون فيما بينهم:

يا قدرية قطّفي الملوخية

يجيبه الآخر:

ويا بدرية بخّري الزبدية

يرد عليه آخر:

يلا قوامن قبل المغربية

أما نحن فكان أجمل مواسم كرة القدم شهر رمضان – لا تستغربوا أنا ابن لاعب كرة، ومن شابه أباه فما ظلم – لعب الكرة في ليل رمضان لا يدرك إحساس الشعور به إلا عاشق لكرة القدم!

كانت ملاعب الحارات تضيء في الليل كأننا في حفل لاستقبال موكب ملكي! وتبدأ الناس بالتجمهر.. وتبدأ الفرق وجماهيرها تزحف مشيًا من حارة لحارة تردد الهتافات والتحديات والتصفيق، والناس يخرجون

لمشاهدتهم كأنهم أمام جوقة موسيقية. رأيت أبي مرة واحدة على طريق الصدفة على ربوة بين الجماهير حين سجلت الهدف الثالث وفريقي يجري نحوي لمعانقتي!

تلك المباراة أراد المدرب أن يختبر أداء بعض اللاعبين المستجدين.. فجعل الأساسيين على دكّة البدلاء. فتقدم فريق الخصم بأربعة أهداف مقابل هدفين لنا.

كان ملعبنا مستويا رائعًا على أرض منخفضة ترتفع على جانبيه مدرجات من الصخور والبشر. لا أزال أذكر، فقد انتهت تلك المباراة بالتعادل.. كم فرحت عندما رأيت أبي جالسا يرمقني من بعيد. لكنه لم ينتظر ليشاهد هدفي الرابع!

وكان أجمل ما في تلك الدوريات الكروية مشاهد الالتحام بالأيادي بين الجماهير إذ كانت كل مباراة لابد أن تختتم بمشاجرة كبيرة!!

أما في اليمن عندما عدنا أزمة الخليج.. فقد كان رمضان في القرية مختلفا بالكلية.. حياة بسيطة.. هادئة.. لا ضجيج ولا جلبة! أناس بسطاء.. جبال ووديان.. وسوائل تزين فضاءاتها أصوات الأغنام والكلاب والحمير!

يبدأ إعلان تباشير رمضان من أول شهر شعبان! يستشعر الناس نفحات رمضان من بعد! حتى كنت أقول إن رمضان في اليمن يبدأ في شعبان!!

يجلس الشياب على الدكك وعلى صرحات المسجد يدعون: اللهم بلغنا رمضان. ونحن ننظر ببلاهة إلى ابتسامات الأمل في عيونهم.

لا توجد أسواق في القرية ولا مولات وهم يرددون تلك الأسطوانة: "رمضان يجي هو ورزقه"؟؟!!

ثم يأخذون في سرد القصص عن بركة رمضان. ويذكرون زمانهم عندما كانوا صغارًا. كانوا يظنون أنه لا يفطر في رمضان إلا الأكل والشراب لكن شرب المداعة والجماع.. أمر من المباحات!

يضحكون وهم يسردون عن بعضهم مثل تلك المواقف. وكيف كان بعضهم يستغل نوم الناس في النهار ليقوم بسرقة الدجاج!!!

ويبدأ هذا الحشد المعنوي في صدور الأبناء وهذه التعبئة التربوية الممتازة من حين وحين.

لا يذهب في خاطركم أني أعيب على مكة!! معاذ الله! فمكة منبع الخير ولكني أتحدث عن تجربتي التي صنعتها ظروف معيّنة!

يقوم البنات في القرية بالاهتمام بالمسجد.. ينظفنه.. يبخّرنه من أجل صلاة التراويح.. بترتيب المصاحف بعد أن يخرج الناس من صلاة العصر.

يبدأ موسم شراء المواطير لكن كانت المواطير في التسعينات لا يقدر عليها إلا المغتربون. فكنا نؤم بيوتهم لمشاهدة مسلسل دحباش في سمر قات عظيم.. تتوسط المقيل مداعتان/عروستان من التتن الفاخر.. تنعقد غمامات الدخان على سقف المقيل كأنك تخزِّن في بركان!

ما كان ألذ من صلاة التراويح.. خفيفة رغم أننا في القرية نصليها عشرين. يغمغم فيها الإمام إذا نسي آية فلا يرده أحد! كان جدي رحمه الله إمامًا لكن كان عنيدا لا يريد أن يذكره بالآية أحد! يريد أن يتذكر الآية بنفسه! شق على الناس الانتظار وهم في الصلاة ذات مرة وجدّي يحاول أن يستذكر الآية بمفرده، فتحركت شفتا المؤذن: إييه الحاج نشَرْ! همس الذي بجواره: اخرج الله يلعنك بطلت صلاتك! فرد عليه الذي بجواره: ما أنت إلا صلاتك مقبول!!

ضج المسجد بالضحك.

ماذا نفعل؟ شهر رمضان كان موسم البقل والكراث والكوبش (الملفوف). والأطفال يذرعون القرية من أعلاها إلى سفالها وهم ينشدون: "رمضان شهر الشَّفوت ..يالله بعجّازي تموتْ" ولأن مسجد القرية كان صغيرا فلكم أن تتخيلوا موقف الناس إذا تجرأ واحد فتجشَّأ!!! لأنه كيف تكون شفوت بلا بسباس وكوبش وبقل؟!!

أذكر مرة كان لدينا شيخ كبير في السن عاقل وكلمته مسموعة صلى جوار أحد عشاق الكوبش فبلغت روحه الحلقوم!! كان يضطرب في صلاة المغرب ينتظر متى تنتهي الصلاة حتى ينفجر في وجهه من الغضب! فما إن سلم الإمام إلا وبادره الشاب بجواره قائلا: لكن أظنك يا عم قد أكثرت من أكل الكوبش؟ قال له: والله العظيم كنت أظنك أنت!! قال له: لا لا أنت تعرفني لا أحب هذا الكوبش من أساسه!. وهكذا تخلص الشاب بذكاء من ورطة كبيرة ثم انسحب برشاقة في وسط ضجيج في المسجد وصخب.

كان رمضان في القرية ملائكياَ روحانيا ..

لم يكن ينتمي إلى المدن وأسواقها وشوارعها المزدحمة!

لم يكن ينتمي إلى الحضارات وصراع الدول الكبرى والمنظمات!

لم يكن ينتمي إلى الشاشات والتكنلوجيا والجوالات والحواسيب!

كان قرآنيًا.. وهل ينتمي القرآني إلا إلى السماء؟

رحمة الله على شياب القرية.. ورحم الله من مات من زملائي.. ومتع الله بالصحة من بقي.

حكاية النِّخرة

آآآخخخ.. العالم المليء بالضحكات والهمسات والحوارات لا أستطيع أن أخرج إليه مشاغبًا فوضويًا.. يؤيد ويعارض!

العالم المليء بالأشجار والأنهار والمروج لا أستطيع أن أرتمي تحت ظلاله أو ألقي بنفسي على ربواته متقلبًا بين أعشابه أو ماشيًا بين أزهاره! فمنذ أن هبطت على القرية حرارة هذا الفصل والطَّفَحُ الجلديّ ينتشر في جسمي.

أنسدح على بطني لأقرأ.. قلت أجرب الكتابة اليوم. نعم منذ شهر كامل لا أقدر على الجلوس!.. غريبة هذه القرية لها موسم واحد لا يتغير أبدا. حرارة الجو الكابوس تقود إلى الهذيان والجنون!

قرية صغيرة على جبل واسع، تمتد عن يمينها مزارع ومراعي مدَّ البصر. تتخللها بيوت متناثرة كالنجوم. وعن يسارها تقف غابات من النخيل مرتفعة لا يعلم ما ورائها من غابات ومخلوقات إلا الله. الناس بسطاء للغاية. أنا سعيد جدًا بهذه الأجواء. المعهد عبارة عن مجمّع سكني له بوابة كبيرة واحدة، عن يمين البوابة قطعة أرض صغيرة فيها مجموعة من زروع الذُّرة، ينتهي عندها سور صغير لمطبخ المعهد الذي يتمتع بساحة كبيرة نوعا ما يتناول فيها الطلاب طعامهم. وعن يسار البوابة بنايات مكونة من مكتب الإدارة ومسجد تتخللها أشجار الموز والتين. المعهد من الداخل تستقبلك فيه السماء الفسيحة. الطوابق العليا عبارة عن فصول للبنات والطوابق السفلى عبارة عن شقق سكنية للمدرسين. لصق هذا المبنى مبنى آخر كبير. الطابق العلوي منه ملعب كبير للطلاب بباب أخضر مسيَّج بسياج حديدي مخرَّق مرتفع يقي الكرة من السقوط. وبالمقابل من الجهة الثانية مبنى آخر. في الطابق العلوي منه يقع بيتي وسكن الطالبات، وفي الطابق السفلي بيت مدير المعهد الأستاذ آزرول الحكيم وبيت الأستاذ صفوان مدير معهد فرعي لهذا المعهد – لا أدري بالضبط أين يقع معهده – وهناك مواقف سيارات ومزرعة مواشي كبيرة وهناك أربعة أحواض أسماك كبيرة وغزال لطيف بجوارها في قفص كبير كالذي نراه في حدائق الحيوانات.

قرية وادعة تنام في هدوء وسلام لولا موجات الحرّ التي تعصف بين حين وحين.

تذكرت وأنا منسدح على بطني البطل العظيم سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه في القادسية عندما أعيته الدّمامل عن ركوب الخيل فأدار المعركة وهو على بطنه.

الحقيقة أنها تداعت روابط كثيرة من الذاكرة تشبه حالتي هذه.. من القصص والروايات والحياة. العائدون من الحروب والمعارك.. تذكرت القائد أريلياندو في رواية: مئة عام من العزلة. وتذكرت رشاد بطل الكلية الحربية المصرية في حرب قناة السويس أيام السادات كما في رواية نجيب محفوظ: باقي من الزمن ساعة. الذي فقد على إثرها ساقيه.

أبطال وقادة وجنود كثر اضطروا للزوم الفراش والكرسي طوال الحياة. واجتاحتني ضحكة مجنونة عندما أعطتني روابط الذاكرة أيضا رواية: أريد ساقًا أقف عليها! لأوليفر. هاجس شرير في أعماقي: أريد فتاة أتكئ عليها.

يوجد مستشفى حكومي صغير على مسافة عشرين دقيقة بالسيارة.. لكني ترددت كثيرا في الذهاب! أمن أجل طَفَح جلدي يكشف الواحد عن آآ ... ممم ... القضية العربية؟!!!

لكن لا بأس في أن أروي لكم موقفًا مضحكًا. فشر البليةِ ما يضحك كما يقولون. أنا في الحقيقة ضحكت من هذا الموقف، ومن رويتُ لهم هذه الحكاية أيضًا ضحكوا وأتمنى من صميم قلبي أن تضحكوا. أنا بالمناسبة لا أحب الذهاب إلى حفلات الأعراس لكن الأستاذ مدير المعهد ألحّ عليّ ذات ليلة بالذهاب، فوافقتُ. قلت: جميل أن أتعرف على عادات الماليزيين. هذا الانفتاح يفيد الأديب كثيرًا. وأنا في السيارة "الفان" أتفقد ملابسي.. هيئتي.. خواطر كثيرة حول الناس حول الصالات حول الأطعمة تدور في البال. ترجلنا من السيارة.. سلمنا على الذين استقبلونا: أهلًا أهلًا. تنحني الرؤوس، تتسع العيون، ترتسم الابتسامات. أهلًا أهلًا.

الصالة متواضعة.. صحيح أنها كبيرة لكنها ليست فخمة.. صالة مفتوحة على الشارع كأنها أكشاك سوق الليل! ستائر ملونة.. شرائط زينة.. إضاءات قوية.. طاولات عديدة دائرية ومستطيلة.. مظلات كأننا في خيمة لا صالة. ولا أدري لماذا مظلات في الليل؟!!! كنت اللسان

العربيّ الوحيد في الحفلة! لا يوجد أحد يلبس ثوب خليجي غيري فاللباس الماليزي معروف. قميص بلون أزرق أو أصفر بكمّ طويل وسروال فضفاض طويل له نفس اللون ثم فوطة صغيرة توضع على الوسط وطاقية سوداء كأنها مصنوعة من الكرتون. طبعا كانت الحفلة مختلطة رجال ونساء وحتى الجلوس على الطاولات أيضا.. صحون الطعام عديدة ومتنوعة وممتدة بتناسق يفتح الشهية.

لاحظت الكثير من الناس ينظرون إليّ بتقدير بالغ. طبعًا فهمت على التوّ أن الموضوع يتعلق بالنِّخْرة!! خاصة وأني تعرضت لمواقف كثيرة في الباصات والقطارات والتكاسي وحتى طلابي في المعهد يتحدثون بإعجاب عن العرب وأنوفهم الطويلة.

هناك عقدة نقص لدى الماليزيين في هذا الموضوع فهم ينظرون لصاحب النخرة الطويلة نظرة إكبار وإجلال.. الطاقة.. القوة.. القوة في كل شيء!

Where are you from?

Yemen

Will, you have beg nose

وعند ذكر الأنوف تنبسط أمام عيني الكثير من الصفحات المضحكة في كتب الأدب العربي حول الأنوف وأشكالها وأحجامها ومعانيها ما بين مدح وذم.

قال أحدهم:

لك أنفٌ يا بنَ حربٍ أنِفتْ منه الأنوفْ

أنت في القدسِ تُصلي وهو في البيت يطوف

قلت في نفسي وأنا أضحك: ولو رأيتم نخرة أبي ماذا ستقولون؟!

لا أستطيع أن أخفي سعادتي والناس في الحفل ترمقني بإعجاب هذه فتاة تعطيني طبق طعام وهذا يدعوني للجلوس إلى طاولته وأولئك يشيرون بالسلام من بعيد وهذا يقترب يحاول جاهدًا أن يتكلم العربية المكسّرة.

طبعًا لا أقدر على الجلوس.. فالألم شديد.. كنت أعلم وأنا أتجول أن هناك من يود أن يفتح معك بابا للحوار شبيه بالحوار الصحفي ليتعرف على سمات الشخصية العربية:

– وعليكمُ النخرة. تفضل!

طبعًا أردّ السلام بهذه الطريقة وأمسك أعصابي من الضحك لأني أعلم أنه لن يفهم هذه الكلمة أحد. صدقوني لا أبالغ.. كنت أريد أن أنفجر من الضحك.. ترك الناس الاهتمام بالعريس وأخذوا يهتمون بي.

اعتقدت أن كل الفتيات يردن الزواج مني لشدة ما جذبت من انتباه! كنت أمشي مزهوًا كالطاووس رافعًا نخرتي إلى السماء. أليس في بلاد العجائب.

آآخ!

العالم المليء بالضحكات والهمسات والحوارات. العالم المليء بالأشجار والأنهار والمروج. العالم المليء بالمولات والصالات.. هل حقًا هناك ما يدعو للشوق في الخروج إليه والتعرف على أخباره؟ إذا كان ذلك العالم مليء بالحروب والمشاكل، فلماذا التحسّر على فقده؟

لا بأس!

هناك سحابة قادمة من السماء الآن في هذه اللحظة.. رياح باردة لطيفة تهب.. رياح باردة تقول كما كان خالي حمود الحبشي يقول: المستقبل أبيض!

العودة إلى الحياة ..!!

الحمد لله الذي نجّاني البارحة من الموت!

خرجت من البيت أمس عصرا إلى الصيدلية لشراء دواء لزوجتي.. وعدت البيت والأمور عال العال.. تقريبا نمت الساعة 12 ليلًا وفي الساعة الثانية استيقظت بصورة مفاجئة!

شعرت باختناق رهيب.. استويت جالسًا أتأمل في الظلام الشبابيك.. الجو مشبع برائحة اختناق.. لم أستطع التنفس! بدأت أشعر لأول مرة أن هناك تغيرا في صدري كأن هناك كائنات تمشي وتطير! بدأت المسافات في صدري تضيق أكثر.. ازداد نبض قلبي ضعفًا لا أدري لماذا طرأ ببالي أن أذهب لأغتسل! ربما اعتقدت أن وقع الماء على جسدي سيغير من الكيمياء الداخلية للجسم كما يحدث للأرض عندما ينزل

عليها المطر فإذا الأرض تهتز وتنتعش. لكني لم أفعل.. حين وقفت على قدمي شعرت أني أغيب عن الوعي، وأن حفرة في الأرض انفتحت، وإذا بي أتهاوى في البعيد السحيق! أحسست بقرب نهايتي! قلت لنفسي: لن تكون نهايتي بهذه الطريقة.. وفي هذه القرية وراء الجبال! أنا قارئ لن أموت إلا وسط مكتبة أو أمام المحراب! بدأت عيني اليسرى بالخفقان! لن أموت بهذه الطريقة!!

كانت زوجتي تعاني من أزمة ربو شديدة فقد استيقظت قبلي.. إنني أسمع صوت جهاز البخار في المطبخ.

حين جاءت قلت لها: "يابنيةْ.. والله أن الدنيا بغيرهْ"! لا أقدر على الوقوف.. أشعر أني أغرق في الظلام.. مخنوق. أعطني ماء / وامتدت بجواري لا تقدر على الكلام من الخوف!

جاء على بالي موضوع الكورونا وأزمة الأكسجين وطرق المقاومة وتنشيط الدورة الدموية، فانبطحت على الأرض: انبطاااااح وبدأت أستعرض كل ما أعرفه عن التمارين: التمرين التاسع على الخامس.. تمارين حركة الضفادع المائية.. تمارين الرقبة وتمارين التنفس الصناعي.

طبعا كان كل ذلك في الظلام!!

لكم أن تتخيلوا شكلي ساعتها!

لكن تذكرت أني لا أسعل!! قلت: كيف كورونا وأنا بلا سعال؟! حاولت أن أتنحنح! قلت ربما سعلة عالقة بشيء ما! خرجت سعلة بمنتهى اللطف.. دون جدوى أنا لا أسعل ولا أعطس! يعني الأمور طبيعية.

ما هو هذا إذن؟! أردت أن أفتح باب البيت وأصرخ لمن في المعهد من البشر.. فتحت الباب: كان أحد المدرسين قرب مكتب الإدارة ممتدا بصورة طبيعية، ويضحك في الجوال. الله أعلم ماذا يشاهد.. نظرت في الجو قلت ربما غبار أو ضباب أو ما شابه.. لاتزال الرائحة تصدم أنفي.. فقدت القدرة على التركيز ما عدت أدري رائحة ماذا؟

كنت أتمنى أن أجد الأستاذ الذي يضحك في جواله يعاني من الاختناق مثلي لكن خاب ظني! إنه يضحك وكرشته تنبض كقربة الماء!

قلت: والله لن أستسلم بهذه السهولة.. قفزت إلى الحنفية وتوضأت.. واستعنت بالله وصليت صلاة مودع، وبعد الصلاة أخذت أقرأ من سورة البقرة، ولم أشعر إلا وقد نمت.

ونحـن علـى الفطـور في الصـباح.. تنظـر إليّ زوجـتي بامتقـاع وبعـض اطمئنان.. قال ابني الكبير: أمس كان مدير المعهد يشعل كراتين وظفاع بقر وراء المعهد! نعم بالقرب من بيتنا!!!

أها .. عرفت الآن السبب !

لم أغضب من مدير المعهد والله.. ولكني غضبت.. كيف أني لم أعد أميّز رائحة الظفاع![1]

[1] الظفاع روث البقر .. فمن عادات أهل القرى في اليمن أن يشعلوا في روث البقر كي يطردوا البعوض احترازا من مرض الملاريا.

نزهة في الجنة

أطفأتُ المصباح لأنام.. وحين استلقيتُ على السرير.. أغمضتُ عيني سريعًا.. محاولا التخلص من جلسات المراجعة والمحاسبة. تلك التي عودت نفسي عليها ولم أستطع الفكاك منها. لكني شعرت بألم في معدتي. كانت أجواء القرية في الخارج هادئة كالمعتاد.. قرية من القرى لا يهم اسمها. تطل على سلسلة جبال.. تحيط بها غابات من النخيل.. وبمحاذاتها وديان كأنها ألواح من ضوء. شكلت السيول وهطول الأمطار المتواصل بقعا من الجروف والحفر. تتناثر على جوانبها الصخور وناعم الرمل. تتحرك الخنازير البريّة الكبيرة بين الغابات بالقرب من القرية.. الليل المدلهم ينبض بالظلام ونقيق الضفادع. حرتُ ماذا أفعل! حين تيقنت أن الألم قد تمكن من أعصابي.! حاولت أن أستمع للموسيقى،

ولكن السمّاعة مزعجة! كان لدي موضوع في الفلسفة أشتغل عليه منذ أسابيع ولكن.. هل هذا الوقت مناسب؟ فقررت أن أقرأ.. فما إن أضاءت شاشة الجوال. حتى سرح بي الخيال بعيدًا. إلى قريتي التي تغربت عنها منذ عشرين سنة.. وترامت إلى نفسي أجواء المرح، والبنات في الفجر يذهبن إلى البئر على الحمير. وضوء الشفق الوردي يرسم أقواس السماء بكل وداعة وفن. نعم. لا أزال أتذكر مبسمها الصغير كل صباح في طريقي إلى المعهد، وهي تكنس أمام بيتها! لكن الألم لم يكن يتركني لأنعم في خيالاتي البعيدة تلك. بل لقد ظل يجرني جرا إلى سريري المشؤوم. وحين علمت أنه لا فائدة من محاولة النوم. قررت وأنا بين الغفوة والصحو أن أخرج من الغرفة. نزلت الدرج وفتحت باب البيت، فاستقبلني هواء النسيم يغريني بأخذ جولة قصيرة. الجو صافي. فقلت: لم لا؟ مشيت بتؤدة بين البيوت، وانحدرت قدماي قليلًا باتجاه الوادي، وأنا أجيل بعيني صوب الجبال مسبّحًا أهمس: يا لجلال الملكوت! وأخذت أمشي. لا أدري كم استغرقت من الساعات، وأنا أمشي بين الوديان. إلى أن سمعت صوتًا بين الأشجار، فاعترتني قشعريرة ووحشة. فتوقفت. تمالكت نفسي وطمأنتها، وتقدمت بحذر صوب الشجرة، فرأيت شبحًا أبيض! تحرك مسرعًا منزويا وهو يرتجف من الخوف. هدأت الأصوات الليلية تماما واستعذت بالله من شر هذه الليلة. وبين رغبة بالهرب ورغبة

في الاستكشاف. دفعني الفضول: ما هذا المخلوق؟ ولماذا هو خائف مني؟ تقدمت نحو الشجرة قليلًا، فرأيت شخصًا عاريًا شديد البياض. قدمت له ردائي وغطيته، ألقيت عليه السلام، محاولا استدراجه بالكلام. قال لي: أنا ملك من السماء الخامسة، ولكن الله عاقبني بسبب معصية، ومكثت هنا ألف سنة لا يدري بي أحد، يمر الناس ولا يشعرون بي، حتى مررت أنت الليلة، ففتح الله لي ورضي عني. فركت عيني! ملك ؟! أأنا في حلم أم في علم ؟ ملك ؟! ومن السماء الخامسة؟! أنست نفسي ودار بيننا الحديث. قال لي الملك: الآن ستهبط إليَّ أجنحتي وأطير إلى موطني. قلت له: صف لي الجنة. فذرفت عينُ الملك. لقد اشتقت إلى موطني الجنة كثيرا. وفجأة برقت السماء بوهج عظيم، حتى كاد يذهب ببصري. فتحت عيني فإذا بأجنحةٍ بيضاء كبيرة ممتدة بين المشرق والمغرب! تغير حال الملك، فإذا هو عملاق كأنه برج الـ KLCC خفت على عقلي. قلتُ متلعثمًا وقد امتلأ قلبي بالرعب: ما شاء الله. على كل حال كان لقاء رائعا. مع السلامة. وهممتُ بالهرب! وما إن رفعت ثوبي لأطلق للريح ساقي، حتى رأيت نفسي في رفقة الملك صاعدًا إلى السماء. وبعد تفكرٍ وروحي تتلقى رسائل إيجابية من الكون. قرّ في قلبي أنها مكافأة على صنيعي وإحساني إلى الملك. جزنا السحاب وطوينا السماء كلمح البصر. حتى وقفت

على باب الجنة، فسمعت أصوات الأغصان وخرير الأنهار، وتدافع الهواء البارد إلى ثيابي يمسّدني، فانفتح الباب على مصراعيه: أهلًا بالشاعر. كان أهل الجنة يستقبلوني بحفاوة والحور العين تتسابق إلي بأطايب الفواكه والبخور الذي لا مثيل له في الدنيا. لم أقدر على الكلام. ظلت عيوني شاخصة.

قلت في نفسي: وما أدراهم أني شاعر. لكن ماذا أقول؟ بصراحة لقد غمرني السرور وغشيتني أنوار الرضى حتى أشرق وجهي ثم قلت: ولكن كيف ولا زالت اليمن في حرب؟

وبينا أنا كذلك والجنة رياض خلابة تموج بالحركة والنور. إذ سمعت صوتًا رخيمًا يقول:

لم يبق للظالمين اليوم من وزرٍ

إلاّ أنوفٌ ذليلاتٌ ستنحطمُ

قلتُ والله هذا صوت معروف. فالتفت سريعًا فإذا هو أبو الأحرار محمد محمود الزبيري بقامة فارعة ووجه شاب وقور، وجبة من الياقوت ونفيس

الجواهر. يصحبه ألف ملك وألف جارية بأيديهن الحرير والكؤوس والأعواد يتغنين بشعره. يتهلل وجهه بِشرًا وتنضح ثيابه عطرًا. فانكببت على يديه أقبلهما والدموع تجري على خدي من شدة الفرح وأنا أقول: والله إني أحبك يا أبا الأحرار . فأخذ رأسي بيديه ورفعهما قائلًا: ليس هنا تقبيل الأيادي.. ما رضيت تقبيل الأيادي في الدنيا.. أأرضاه في الآخرة؟ ذاك يوم أن نصّب بعض البشر أنفسهم أسيادا على الناس. أما هنا فلا. بل سلام قولا من رب رحيم. وكنت أتوق لسماع الشعر من فم الزبيري وأنا في الدنيا.. أتخيل كلماته وهو يقارع الإمام ونظامه البائس، فكأنه أوحي إليه وما هو بوحي، وإنما يبدو لي أنه من شدة بياض قلوب أهل الجنة وصفائها صار يرى الوهم يسري في نياطها!

فابتسم وحدّق ببصره في المدى ثم نظر إليّ بلطفٍ قائلًا: حبًا وكرامة فأنشد:

رفقًا بقلبك يا "عمرْ"

لم تُبقِ منه ولمْ تذرْ

حمّلتهُ عِبْءَ البشرْ

وحكمتهُ حُكمَ القدَرْ..

رفقًا به طال المسيرُ

عليه، واتصلَ السفرْ...

قلت له: أوه. هذه قلتها عندما كنت في باكستان. نعم. أهديتها لصديقك الشاعر السوري عمر الأميري. وضع الزبيري راحة يده على كتفي مبتهجا فخورا. وهز رأسه موافقًا، ثم قال لي: يا بنيَّ عليك بالشعر فأنت شاعر عظيم. إن كل حرف تخطه في خدمة وطنك يرفعك الله به أرفع الدرجات ويفرج عنك أدهى الكربات. ثم تلا قول الله تبارك وتعالى: " إن الله لا يضيع أجر من أحسن عملا " رفعت بصري. فإذا السماء على هيئة قصيدة باذخة الحروف، مهيبة المعاني، كأنها الديباج الخسرواني والوشي المنمنم. وإذا قيعانها نوتاتٌ موسيقية وجناتٌ من أنهار، وصفحات من جمال أبديّ. ثم أخذنا نتنزه في الجنة. كانت وشوشات الأغصان مع هدير صوت الزبيري تنكسب في أذني فيا للروعة!

رأيت في الجنة مدارس حديثة وأبراجًا شاهقة من الكتب، وصالات ملونة وملاعب ومسابح على أحدث طراز، ورأيت طبيعة غنّاء ساحرة، وأشجارًا طول كل شجرة مسيرة ألف سنة. قلت للزبيري: أنا أحبك كثيرا. وأشعارك أصبحت رمزا للوطنية وسفرًا للأحرار. قال يا بني: الكلمة الحية تعرف طريقها إلى القلوب. ثم إني سألته: ما الشعر؟ قال لي: الشعر يعرف بأثره وجماله.. ولا يقدر أحد على تعريف الشعر. لكنه قضية إنسانية.. يحمل همّ المظلومين على عاتقه، ويزلزل بها عرش الطغاة.

ثم مررنا على شعراء أعرفهم وشعراء لا أعرفهم.. بعضهم من العرب وبعضهم من العجم.. كانوا في خيمةٍ سميكة من لؤلؤ مطرزةٍ بالزنابق والشقائق والزمرد الأخضر. ورأيت ما هم فيه من نعيم مقيم. ألقينا عليهم التحية وأخذنا موعدًا للقاء. ثم انصرفنا. حتى مررنا على البردوني وقد رد الله له بصره كأجمل ما يكون، وإذا هو في مجموعة من الشعراء والكتاب والمثقفين الأحرار يتندر كما كان يتندّر في الدنيا. فعرفني البردوني وقال: أهلا بالشاعر، ودعاني لاحتساء النبيذ. قلت له: النبيذ في الدنيا. ففهم قصدي وأشار إلى غيمة سكَّريَّة، فإذا بها تجتمع وتمطر فوقنا عنبًا وأقداحا كالنجوم وصبايا فقال لي ضاحكًا: اشرب حتى تستغيث. فمددت يدي إلى الخمر وأنا أرتجز:

مثلمـــا يبتـــدئ البيـــتُ المقفّـــى
رحلـــةً غيميـــةً تبـــدو وتخفـــى

مثلمـــا يلمـــس منقـــارُ السّـــنا
ســـحَرًا أرعـــش عينيـــهِ وأغفـــى

هكـــذا أحســـو يـــديكِ.. إصـــبعًا
إصـــبعًا أطمـــع لـــو جـــاوزن ألفـــا

مثـــل عنقـــودين أعيـــا المجتـــنى
أيّ حباتهمـــا أحلـــى وأصـــفى

فاستوى البردوني جالسًا وقال لي: أحسنت. تلك اللغة السريالية التي هدمت بها المألوف وخرجت بها على السائد، لم يقف الناس على تجربتها الوقفة الجادة التي تمكنهم من فهم دلالاتها. وإنما مروا بها مرور الأطفال. لقد كان غرضي منها أن يتمدّن المجتمع من جذوره فينفض عن كاهله ركام القرون البائدة. وأن لا نظل معزولين عن حركة الشعر العالمية. لكن الناس وقفوا على عجائب التركيب وشكل القصيدة وإيقاعها الخليليّ!

لقد كتبت مدينة الغد. وها هي مدينة الغد. بهذه التجربة الحداثية جعلني الله في طليعة المصلحين وأدخلني الجنة بلا حساب. ثم أخذت البردوني الرقةُ فبكى وبكى من حوله وقال: الحمد لله الذي رحم ضعفي وبلغني بالشعر رضاه. ولو أني رجعت إلى الدنيا لرميت بالشعر العمودي وراء ظهري، وكتبت القصيدة المعاصرة حتى أستوعب من قضايا الإنسان وقضايا العصر أكثر وأكثر. فعانقته ثم استأذناه على أمل اللقاء وانصرفنا. وسمعت أصوات غناء من بعيد. أصواتا عذبة تنبعث من بين الأسواق، فلا ألذ منها ولا أطرب. وإذا به أيوب طارش عبسي يدندن وبجواره الشاعر الفضول على سررٍ من سندس وإستبرق.. يغني بنشوة:

الهتافاتُ لمن بين الجموعِ
إنها للشعب وحده

ولمن فرحتنا ملء الربوعِ
إنها للشعب وحده

ولمن يقظتنا دون هجوعِ
إنها للشعب وحده

ورأيت أنهارًا من ماء أصفى من الضوء، وأصقل من صدور الغواني. تنحدر إليها الجداول بأشكال هندسية عبقرية، والشلالات تدفق تدفقا بديعًا، تفيض بالخمر والعبير، قد زينت نواحيها بأباريق من العسجد، وأكواب من الزبرجد، وهي كما قال الله في القرآن: " مثل الجنة التي وعد المتقون فيها أنهار من ماء غير آسن وأنهار من لبن لم يتغير طعمه وأنهار من خمر لذة للشاربين وأنهار من عسل مصفى " ورأيت من الحسان الغيد ما يفلق لجمالهن الصخر، ويضيء بوجوههن الظلام، ويجعلن ضيق الدينا سعة، وماء البحر حلوًا وسكرًا.. لطيفات الخصور.. رشيقات القوام.. كأنهن بيض مكنون. كواعب أترابا.. حور عين. كأمثال اللؤلؤ المكنون. أصابعهن أمطار وموسيقى وأبشارهن النضارة والشباب. ولو رآهن شعراء أهل الدنيا لخجلوا أن يكتبوا شعر غزل، ولضاقت بهم أنفسهم.

ولخجل نزار قباني أن يقول:

أيتها الأنثى التي في صوتها

تمتزج الفضّة..بالنّبيذ.. بالأمطار

ومن مرايا ركبتيها

يطلع النّهار

ويستعدّ العمر للإبحارْ

ورأيت أبناء المقاومة من تعز ومأرب الأحرار في نعيمٍ يغبطهم عليه الأنبياء والصالحون.

مرّ الوقت كسهم من ضوء، وحان وقت هبوطي، فقيل لي: ألا تود أن ترى أهل النار؟ فصمت من شدة الخوف. حتى إذا دنوتُ من شفير النار، رأيت مقامع من حديد وأغلالا وأعمدة.. وسمعت صراخا عظيما كاد يغمى عليّ. قيل لي: أولئك أعداء الشعب. الذين باعوا اليمن بثمن بخس. هتكوا أستار المسلمين وفجروا بيوت الله. وهم يصيحون في النار: "ربنا أخرجنا منها فإن عدنا فإنا ظالمون" ثم يأتي الرد القاسي مع هوي المطارق على رؤوسهم: "اِخسئوا فيها ولا تكلمون". فلم يمر عليهم عذابا أشد من هذا الرد القاسي. قلت إذا كان ذلك شأن الأتباع، فأين القادة الذين طغوا في البلاد؟ فزفرت النار زفرة عظيمة. فعلمت أنهم في أودية لا يصل إليها البصر تستغيث جهنم من حرها.

فاستعذت الله من النار وبطشها. وتمنيت أني لم أر شيئا من عذاب أهل النار. فقد تبدل حالي وخرب مزاجي وتكدّر خاطري.

وحين تهيأت مودعا والحسرة تأكل قلبي رأيت شعراء المقاومة من مختلف أنحاء العالم يقفون صفًا واحدًا لوداعي فسلمت عليهم جميعًا.. سلام الشعراء للشعراء. أغمضت عيني للهبوط وإذا بزوجتي توقظني لصلاة الفجر. فعلمت ساعتها أني كنت في عالم اللاشعور، حيث تعيش الأفكار الفاضلة والأماني النبيلة والأحلام الندية بمدينة الغد. فقمت إلى الصلاة مسرعا.. مسرورًا وأنا أردد من شعر الزبيري:

يا قوم هبّوا للكفاح وناضلوا

إن المنام عن الذّمام حرامُ

28 أغسطس 2020

على كورنيش الدمام

يكتب الله لبعض الساعات فتحا مبينًا في عالم الروح البشرية يكون للروح فيها يدان تتلمس، وعينان تضحك، ورئتان تتنفس.

ساعات مقدرة محكمة! تحمل معها كوكبًا يضيء في الحقائق والكنوز المختبئة تحت جدران النفس.

خرجت البارحة مع صديقي شاكر.. صديقي اللدود.. كورنيش الدمام البديع. وكان الأطفال من الكثرة كأنهم فيما يُشبه أعياد الاستقلال والثورة. لم يكن الكورنيش الأخضر مفروشا بالعشب؛ بل كان مفروشا بالأهداب اللمّاعة، والعطور المسكرة، والألعاب الكهربائية المجنونة؛ وكنت أحفظ في يوميات الجوال نتفًا من كتاباتي، وأخذتُ في عرس

الأضواء أقرأ وكان ابن عمي ذوّاقة شعر، ومتى كان معك جمهورٌ شاعر؛ فاعلم أن الله راضٍ عنك.

كانت الأمواج قريبة لكنها كانت تعيش حالة من حالات الذهول والاندهاش، فالشفق ممتد على الأفق والشمس تغرق في المياه البرتقالية. وكانت دلةُ القهوة مضطربة بعض الشيء وزمزميةُ عصير العنب ساخرة في الثلج كعادتها!؟

القهوةُ السوداءُ: أنا صهيل الرمال في الشعر العربي.

زمزميةُ العنبِ: أنا الشقراوات في الأدب الانجليزي.

لا لذة في الدنيا تعدل جلسة من جلسات الأدب. وأنا أحدّث عن نفسي لا أشعر بأن حجاب الغفلة يُرفع عن عيني، وضباب الشك ينقشع عن قلبي إلا عندما أقرأ في اللغة والشعر أو أستمع لموسيقى ساحرة؛ أشعر عندها أنني في الثامنة عشر من عمري!

وما رأيت في جولاتي الأدبية المتنوعة والمختلفة وفق ما قيضه الله من وقت وتوفيق كأمة العرب في عشقها للكلمة الجميلة والنغمة الحلوة واللفظ البديع.. أمة تكلف بسماع الأدب والتلذذ بالكلمة الجميلة. انظروا هذا المشهد الذي وقعت عليه في كتاب البيان والتبيين للجاحظ:

"قيل للمنذر بن واصل: كيف شهوتك للأدب؟ قال: أسمع الحرف منه لم أسمعه فتودّ أعضائي أن لها أسماعًا تنعَّم مثل ما تنعّمت الآذان، قيل: وكيف طلبك له؟ قال طلب المرأة المضلّة ولدها وليس لها غيره. قيل: وكيف حرصك عليه؟ قال: حرص الجموع المنوع على بلوغ لذته في المال".

قلت لا بن عمي: قديما، قرأتُ لابن الأثير المجلد الأول كلاما رائعا حول قول الله عز وجل في الشعراء (ألم تر أنهم في كل واد يهيمون؟!) وخرج بهذه الآية إلى اتجاه آخر تماما، وهو أنه على الكاتب ألا يَجمُدَ على لون واحد من الكتابة، وعليه أن يكتب في كل فن، وأن يكتب حتى في الأدب الشعبي!! وكان مما أذكر في تلك الجلسة أني كتبت قصيدة نثرية:

(لقد أنهكني الحفرُ حولَ أشجارِ الشعر!

تشققتْ يدي.

أرهقني الجدلُ البيزنطي مع عينيكِ المراوغتين!

نفدَ صبري.

لقد تعبتُ من العملِ معَ ابنِ منظورٍ في لسانِ العرب!

الأجرُ زهيدٌ وحبُّكِ يقفُ ابنُ منظور والخليلُ ابنُ أحمدَ وابنُ جني على حدودهِ، فيغرقون في الصمت!!

ويغرقون!

وأرجع أناُ صفرَ اليدين!

أريد أن أتعلم منك الأميَّةِ، فأنا لا أستطيعُ بمفردي مغادرةَ الكتاب!).

زحفنا على الرمال إلى البحر.. كان الموجُ الأزرقُ يزأر في أذنيّ، تسألني نفسي عن كل شيء، كيف تسكب يدُ الله هذه الأجواء والأصوات في أعماقي المظلمة ولا أشرق؟!

الرياح لا تكف عابثةً، والبحر يفغر فاه يميل بعنقه بلا توقف يلاحق الرياح على طول المدى، ودقات القلب الخاطفة!

الموج لا ينكسر

الرياح لا تنكسر

الوطن لا ينكسر

في صدري تسابيح طويلة، حواسّ روحي العشرين، تقوم بعمليات رصد مكثفة، أعماقي في حالة توتر غير أنهُ توترٌ غريب جدًا، مزيجٌ هو بين الشعور بأمطار قصيدة جديدة، وفيضان رغبة لذيذة، وشعور بالخوف، وظلال كاعبٍ ناعمة.

فعلًا إن هناك بلادًا شديدة الإحساس بالمطر قبل وقوعه إنها بلدان قلبي البعيدة.

هناك شيءٌ في الطبيعة يريد أن يقول شيئا

هناك شيءٌ ما، يعجز أن يقول شيئًا

قلتُ لنفسي: أودّ البقاء على هذا الساحل الأجش.

فقالت: لأي شيء؟!

– وجدتُ مدخلًا إليك فأنت رعناء لا أقدر عليك، دومًا تتفلتين من يدي كالزئبق، وصوت البحر من الأسرار الإلهية، يجعلك تتماسكين فتتوقفين عن الجري.

فقالت: أنا أهرب إلى الشعر، وعقلك يرغمني على العيش مع الأموات!

– لكن الحياة ليست شعرًا..

كان الهواء يلاعب شعري، ويحرك الأشياء.

كانت النفس تهتز كالزهرة في وجه الريح! وأصوات الأطفال بين الماء، كانبثاق ضوء الفجر بين صخور الظلام.

ليس العقل الذي يهتدي للحب والجمال، وليس العقل الذي يدرك ما وراء اللون الأزرق، ولا يدري العقل كيف يعمل الفن، وهو بغروره يغلق الأبواب في وجه الموسيقى، فيغلق الكون في وجهه كل شيء، أنت تخنقني، أتمنى أن أعمل حفارًا للقبور!

ضحكتُ قلت لها: ما الإثم؟

فقالت: أن تحب ولا تصرّح بحبك، وأن تفكر في الأرقام وتنسى روحك، وأن ترغمني على التفكير مثلك.

- وما الخسارة؟!

- وطنٌ يحميك ولا تحميه.

- ألا تنصتين إلى الناس من حولنا، وتكفين ولو قليلًا؟!

– حديثي إليك نوع من الإنصات أنا أنصتُ حين أضحك وحين أتملّى وجوه الحسان، وحين أنزل على سحابة. السحابة موطني فهي مسكونة بدموع الفرح بلقاء الأحبة، ومسكونة بدموع الشجن على المحرومين ومسكونة بالرحيل. وأنصت جيدًا حين أتحدث للمجانين!

– مسكينة أنت أيتها الصبية لقد عقَّد الإنسان الحياة بالكراهية، واقتحم الجشع بيوت الصلاة فصارت الروح بلا شريعة، وصارت الشعيرة بلا حب وصار الحب مختلفًا، وصار الزواج كحفلات التأبين، وعقود العمل مدى الحياة.

– قلت لها ما الحب؟

قالت: ألا ترى الغصن يعطف على الغصن، والنسيم على الأوراق؟ وترى الحمامتين على عذق شجرة؛ يتناجيان بأعذب ما في الكون من شجن؟

كان زبدُ البحر فوق الموج نشوانًا يمرح، والشباب يتراشقون بالرمل ببلاهة، وخيام عائلية تنصب جوارنا، والهواء منفعلٌ يوزّعُ عطاياه على المفترشين الشمس غائمة، والجو سلاسل من ذهب وشابٌ هندي يأخذ بمرفق حبيبته يمرَّان أمامنا يمشيان في الماء يتحدثان برفق ولين ولطف،

كأن غصنًا مائلٌ بغصن، وكأن عصفورًا يوشوش عصفورة، لا يباليان بالعيون المشرعة أبدًا نحوهما باستغراب، كأنهما يقفان للصلاة بخشوع في محراب الحياة. شعرت قلبي يغرق في غمام من النبضات السريعة!

وكان على الكورنيش الذهبي باعةٌ يبيعون للأطفال، وباعة يبيعون جلسات صغيرة وتكايات وكراسي، وباعة يبيعون الماء والبيبسي والثلج، وفي السماء كنت ترى الطائرات الورقية ممتدة بخيط رفيع طويل ترحل للبعيد، والأطفال والآباء على الأرض، يتحايلون على الريح، فمرة يجرُّون الخيط، ومرة يرخون، والأطفال تصرخ من الضحك، وباعة يبيعون المفرقعات! قاتلهم الله. لأول مرة في السعودية منذ ولدتُ فيها، أرى مفرقعات وصواريخ بهذا الجنون.

كنا قد أخذنا على الكورنيش عهدًا أن يكون كما تركناهُ من المرح حين قفلنا راجعين.

أجل! كان يومًا رائعا.

2014

صدفة خير من ألف ميعاد!

جمعتني بها الصُّدف.. تلك الصُّدف التي لا تتكرّر.. كنا في قاعة معهد "أوسام" لتعلم اللغة الإنجليزية.

أيَّتها التي لا تفهم لغتي!

ماذا يفعل عطر جسدك بين أوراقي؟!

بلغتي: أهلًا وسهلًا

بلغتك: بيان فونو

سعيد بالذي لا أفهمه منك، ولا تفهمينه مني

لأني لو قلت لك من أكون وما هويَّتي؟ لتلاشتْ هالاتُ البسمة في عينيك البريئتين

"فأنا في زمن الحرب

كئيبٌ

وغريبٌ

وغريبٌ

ووحيد.

أنا لا هُويَّةَ لا دليل

الأرضُ أغنيةُ الرحيل

من أين أعرف من أكون؟! "

خذي من كلماتي زهرةً لفراشة يديك، وهاتي لي دلافين القمر!

إياك أن تسقطي في الفضيلة..

ابتعدي عن شرقنا..

لقد آمنَّا بفضيلة الفقر، فاكتسحتنا التكنلوجيا!

آمنّا بفضيلة السمع والطاعة، فتساقطنا قطعةً قطعة!

آمنّا بفضيلة العزلة، فاجتاحتنا العصبية!

ابتعدي عن أماكن تجمّعاتنا، فنحن مفخَّخون، إننا عشاق مدجَّجون بالطهر والمخدرات والسلاح!

استمتعي بكرة القدم ..

اقرئي الكثير من الروايات..

أنا مناضل من الرعيل الأول.. وانتظريني

لا أنتمي للشرق، ولا للغرب

أنا مغترب ..

معي إحباطاتي المستمرة، واشتياقي لخبز أمي وقهوة أمي.

لم تؤثر فيَّ الثقافات ولا الأديان ولا سياسات الدول ولا الحضارات ولا المتاحف الوطنية.

لا عمليات الحفر ولا تعبيد الطرق ولا افتتاح مشاريع ولا وضع أحجار أساس ولا تصحيح قوائم الانتخابات

أنا تربية الحزب

أشجار الثورة طافية فوق دمي

لكنني في الثورة وحدي

أكره في أعمالي التخريبية العمل الجماعي

أكره في حالتي الإبداعية العمل الجماعي

أكره في تسكعي العمل الجماعي

أكره في تخطيطي للسفر العمل الجماعي

أكره حال استدعائي للأمن العمل الجماعي

سَلِّفيني وشاحك.. والسَّدادُ حرارةُ قلبي

سَلِّفيني خدّيك.. والسَّدادُ عصفورةٌ قرب النافذة.

أنا أذوي لكني متوهج

أنا أنهار لكني لا أسقط

أنا أصطدم لكني لا أنكسر

أنا أضل لكني لا أهتك الأستار

أنا أصاب، ولكني أعالج نفسي بهديل الحمامة.

أنا من جيل الثمانينيَّات ليس في قلبي وطنٌ سوى الأغنية

أنا مازلت أتنفس..

إذن..

لآخر جمرة في نارك سأقتحمك.

ربّما تتلمّسين بروحك ما وراء كلماتي الغريبة صوتَكِ الشارد! فتظلّين تديرين لسانك تحاولين نطق بعض الكلمات العربيّة؟ ما الذي في العربيّة جلب اهتمامك؟

من يدري؟!

ألا يُمكن أن أكون قد تسرَّبتُ في كلماتي عبرَ فوضى حَوَاسِّكِ إلى أعماقك.. فتعثَّرتُ بطفولتك؟!

ما الذي يجعلك تختارين الكرسيَّ الذي أمامي مباشرة؟

ربما رجعتِ البيت من الجامعة فوجدتِ في الكلمات إزرار قميصك!

ربما..

فالكلماتُ قلبُ العالم، والكاتبُ الفنّانُ الشّريانُ الذي يمدُّ القلبُ بالحلم!

بلغتي: صباح الخير

بلغتك: بو نجور

أتسائل وتيارٌ لطيفٌ يهب من عينيك على شعري وروحي، كما يهب نسيم بارد من قمّة جبل.. يا ترى كيف انكسر رسالة جليد اللغة فصرت تحترقين بما أكتب؟!

أوووووووه كم أنا متزمّت؟!

لم كل هذه الأسئلة؟!

لم كل هذا التفكير المنطقي؟! هل تحتاج لغة العيون إلى منطق؟

ما الذي يحدث بين غصن وغصن لو سرى من السحابة تيارٌ من الحنين؟!

ما الذي يحدث عند بزوغ القمر بين عاشقيْن على شاطئ؟

ماالذي يحدث بين الأشجار المتقاربة، والأرواح المتعانقة!

أووووووه

لم كل هذه الأسئلة؟! لم كل هذه الأسئلة؟! كم أنا عدو نفسي؟!

هاتي يديك ثانية وغنِّي معي:

في لحظـةٍ مِـن غفلـةِ الزَّمـانْ
أقبلـــتِ يا سُـــويْعةَ الأمـــانْ

أقبلـتِ رغـمَ عاصـفِ الـرَّدى
وقلبـــه الملـــيء بالأضـــغانْ

أقبلـــتِ كابتســـامةِ السَّـــما
لأحـــرفٍ دموعهـــا ألـــوانْ

مـــن حولنـــا كرنَّـــةِ الأوتار
تـــود لـــو تضـــمُّنا الألحـــانْ

في رفقـــةٍ كســـيرةِ الأنهـــارْ
تُـروى علـى الجبـال والـوديانْ

كخفقـــة الجنـــاحِ لـــو تحـــسُّ
روعـــةَ التَّحليـــق بالمكـــانْ

2015 /8 /28

رسالة إلى السّيّد جان فالجان بطل رواية البؤساء لفيكتور هيجو

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته.. سيدي أنا طارق السكري من اليمن شاعر فاشل وأديب بائس.. قد جمع الله لي حرفة الأدب، فلا أعرف في الدنيا غيرها حرفة.

وقديمًا قالت العرب: حِرفةُ الأدب حُرْفة! والحُرْفة بضمِّ الحاء سوءُ الحظ.

نعم، لقد تخرّجت من معهد المعلمين أستاذًا.. ناضلت من أجل الفضيلة في وطني، فسرقوا راتبي وأكلوا درجتي الوظيفية، فلا استقرت بي الريح بعدها، ولا قرت لي عن الترحال عصا!

على قلقٍ كأنّ الريحَ تحتي

أوجِهها جنوبًا أو شمالا

سيدي!!

لا أدري ماذا أكتب إليك؟ لقد اعتصرت قصتك قلبي.. واستحوذت على تفكيري ورأيت فيك نفسي.. وتخيّلتني أرتدي ما ترتديه من أطمار بالية.. أتلمّس عيشًا كريمًا، وأطوي على نفسي ظلامًا من الحرمان.. وكلما رأيت منظر بؤس نسيت نفسي وطفرت مني الدمعة!

أيها البائسُ المُلقى في خضمّ الحياة.. تغزل الشوارع وتطرق الأبواب جيئة وروحة بحثا عن مصدر دخلٍ تستر به أطفال أختك قبل أن تستر به نفسك.

أيها البائس أليس لك وطن ينعم فيه الجميع بالعدالة؟ ألست في عصر تقدمت فيه بالإنسان نظريات الجمال وانتشرت معاهد الموسيقى وافتتحت صوالين الفنون، فذوق الإنسان فيه راقٍ، ومستوى الإنسانية فيه متقدّم، وحب الإنسان لأخيه الإنسان فيه شائع وبارز؟

أيها اللصّ النّبيل الذي يملك بين جنبيه قلبَ نبي. يشغله حب الله، والرغبة الخالصة بالتحرر من خصلة الطّين، وتشده بقوة إلى السماء نفس طامحة إلى النور. هاجر، واترك هذا المجتمع الفقير في أخلاقه رغم ثراء أهله الفاحش. هاجر، وانتبذ من الأرض مكانًا قصيًّا لا يعرفك فيه أحد، ولا تطالك فيه قالةُ السوء.

لقد شاهدك الناس في الليل عند باب أستاذك تبكي حتى الصباح.. كم أنت يا سيدي بارّ في زمن ساد فيه العقوق، وتنكَّب فيه الخليل الخليل، وأصبح الصديق أشد إيلامًا من العدوّ. لكني سأسألك – وإني على يقين أنك تعلم كم أنا على يقين بك – أبعد كل الذي آل إليه حالك، بعد حياة التوبة وما أكرمك الله به من عز وجاه، وما كنت تغدقه على الفقراء، ومصانعك التي كانت تعيل البؤساء وذوي الدخل المحدود، وملاجئ الأيتام التي كنت تسكب فيها من دماء عينيك وقلبك.. ثم ما أصبحت عليه الآن من تشرد وعوز.. تفر من غابة لغابة! بعد أن كنت تنام على السرير الوفير أمام مدفأة الشتاء.. أصبحت تلتمس حطبًا رطبًا كي تتوسده وتلتحفه. أسألك، هل لا زلت تكنّ لأستاذك الذي غرس فيك حبّ الفضيلة التقدير والاحترام؟! أما كنت بخير وأنت صعلوك يهابك الناسُ، قد جنّدت نفسك للإيذاء وجيّشت نفسك للانتقام؟

سيدي! اغفر لي وقاحتي!

لقد هاجرتَ وهاجرتُ أنا.. فماذا في الهجرة؟

ها إني ثانية بلا وطن.. أبتسم في وجوه كالحة.. أعتزل والحياة من حولي صاخبة آهٍ سيدي! كم سهرت الليالي وأنا أقلب في صفحاتك وأبكي من شدة الظلم!

كيف لم يتلفت إليك أحد؟ أيُترك الذين يبتزون الضعفاء ويعتاشون كالطفيليات على الفقراء يتحكمون في شؤون المجتمع، ويودع السجن أصحاب النفوس المرهفة والضمائر الحية، وإن انزلقت بهم الظروف لتمتد منهم يد قهرًا ورغمًا عنهم إلى قطعة خبز يُعلِّلون به جوعا أو يبلُّون به رمقًا في ظلام منقطع وكوخ وراء الطبيعة؟!

اسمح لي يا أبي أن أبصق في وجه الحرب التي استنفدت الملايين من الدولارات لتشبع نزوة الظفر الشيطانية على حساب الشعوب البائسة.. الشعوب التي يرقص على جثثها شبح الزمهرير وهي كالحمل الوديع من الرضى بالقليل من العلف.

آهٍ كم أود لو أركل في وجوه أولئك الذي يتشدقون باسم حقوق الإنسان، وهم لو كشف القناع عنهم، لتكشّفت عن مخالب وأنياب.

لِمَ لَمْ يسمحوا لك بفتح صفحة جديدة؟

لقد وسع الله كل شيء رحمة وحبًّا.

أتكون عقوبة الذي يخرج من السجن سجنًا من نوع آخر.. قضبانه أشد من الحديد.. وسجّانه أغبى من الغباء.

سجن يصنعه الإنسان لنفسه ويصنع له مفاتيحًا خاصة ثم يلقي بنفسه في أعماقه من العادات الخانقة.. والقيم العنصرية الضيّقة.. والقوانين القبليّة القاتلة.

سجن يظل يلاحق الإنسان في كل محطة قطار.. لا يستطيع أن يتنفس إلا من خلاله ولا أن يتزوج إلا من خلاله.. وإنه كلما ازداد رتبة في وظيفة، ترك للسجن الذي بين عاتقه يملي عليه حدود إبداعه.. ويرسم له سقف طموحه!!

لقد تركوا المجرم الحقيقي وأخذوا يطاردونك باسم العدالة من مكان لآخر!!

أجل، لقد كانت تلك الطفلة اليتيمة والتي لا تمت إليك بقرابة دم، أكثر ما يقلق بالك.. تقوم من الليل فزعًا تخنق أصوات قدميك، وأنت تتحرك في البيت، وتقف على باب الشارع، وتعود إلى مرقد الفتاة تخشى –ولو في الوهم– أن يكون قد نالها مكروه.

أيها الإنسان المثال في رقة قلبه ورهافة حسّه.. أيها الإنسان النموذج في نقاء سريرته وسلامة فطرته.. أيها الجواد الكريم.. لقد عجزت الفلسفات الحديثة ومعاهد الموسيقى والدمقراطيات المدنية أن تصنع مواطنًا كأنت يسعى لخدمة المجتمع ويساعد في إنقاذ الآخرين.

إنما البائس مجتمع لم يضع قوانينه بإرادته.. ولم يصنع منهجه على نور من الله مبين.. أنت السعيد لا البائس.. أنت النبيل لا اللص.. أنت الغني لا الفقير. نم هانئًا وطِب مرقدًا.. وعليك من الله السلام.

ماليزيا

2022 / 8 / 23

عاشقان في السّينما

"ودارتِ الأيَّام" كما تقول كوكب الشرق.

وإن هناك من الأيّام ما يشعر الواحد فيها كأنه في جنة! أيّام حبيبة إلى النفس .. أشبه برقصة الفراشة.

وكم هو جميل أن يأتيك اتصال ناعم وأنت في عز الظهيرة والرطوبة تكبس على الأنفاس والشمس تشوي الأرض وتذيب الحديد.

– أنا اليوم في أسوأ حالاتي النفسيّة! تبكي.. مرت ليلة الخميس وزوجي في أحضان الصّينيّات، والجمعة.. كل من في البيت نائم فيها لم يذهب إلى المسجد أحد أكاد أختنق.. أكاد أختنق.

لماذا يفعل بها زوجها هذا؟ هل هذا فعل المحبّين؟ لم هذا الظلم؟ إن الذي يحب حقًا لا يمكنه أن يفعل مثل هذا؟ كنت أتساءل في نفسي باستغراب! لا يمكن إما أن يكون مريضا أو مجنونًا!

ساعتها كنتُ في المسجد أقرأ سورة الكهف.

شعرتُ حين جاءني الاتصال.. بنسيم فوّاح، وماء بارد يترقرق إلى داخلي مع حزن عميق يعتصر قلبي.

لقد مررت بمثل هذه التجربة المأساوية: العزلة والوحشة والغربة داخل البيت!

ولا عجب فكل منّا يمر بتلك المراحل العمريّة التي نرزح فيها تحت أعباء الرقابة العائلية لا نملك أن نتّخذ قرارًا مستقلًّا.

لكننا كأولاد.. نتمرّد.. ونتربّص الفرص ونكمن في الزوايا ونفلتُ إلى الشارع. ثم يتناسى الآباء أو يتغاضون.. أو يعاقبون بضراوة. أما البنات فهن أسيرات ضعيفات تقيدهن أعمال المنزل حتى المساء.. وتعيقهنّ عادات المجتمع المحافظة.

كان أبي رجلًا مِزواجًا.. فكان يطردني من البيت ويبقي أخواتي للخدمة. يعلفن للحمار ويذهبن للبئر ويقمن بإعداد الطعام.. وزوجة أبي الشّابّة غاطسة في الراحة قد خوّلها أبي رقبته فهي تطوّح بها أنّى تشاء.

كنت أسمع قلوب أخواتي وهن يبكين خيفة وخفية في الليل.. كنت أسمع لعناتهن لأبي وهن ذاهبات لجمع الحطب.. كنت أسمع كل ذلك وأكثر. لكن ما كان لي حيلة. فمن العيب أن نتشاجر مع آبائنا أو أن نطالبهم بالمحافظة حتى على الهامش الضئيل من الكرامة.

ماذا أرد على حبيبتي.. حبيبتي التي أشعر وإياها أننا كيان واحد.. أننا خلقنا لبعض حبيبتي التي يشاركني بها شخص آخر.. هو.. زوجها؟

ماذا أرد عليها؟

كتبت لها على الواتس: حبيبتي علينا أن نصبر.. الصبر مفتاح الفرج و... لم تدعني أكمل. قاطعتني!

كان الناس يقرؤون من حولي القرآن.. وكنت في جو مشبع بالروحانية. قالت: ما رأيك نلتقي؟ قلت في نفسي: لا بد أنها تمزح! نعم هكذا هو طبع الفتيات.. مزاجيات ولا يعرف لهن قرار. قلت لها: نلتقي؟ قالت: الغداء على حسابي. كانت على الجدار في ساحة المسجد شاشة كبيرة

تتيح رؤية الخطيب لمن لم يسعفهم الوقت فيصلون داخل المسجد حيث الأجواء المكيَّفة. شاهدنا فيها شيخا واقفًا ينظر إلى جيبه ثم أخذ يتكلم بالملايوية يبدو أنه يتحدث عن آداب الاستماع إلى الخطبة! أنا في العادة أصلي في الصفوف الأولى داخل المسجد لكنني نسيت الكمامة. نعم، الناس لا يزالون يحترزون من كورونا خاصة في الأماكن المغلقة. أرسلت لها: إن شاء الله نفكر بعد الصلاة. توادعنا ودعونا لأنفسنا بالبركة. بدأ الخطيب يتكلم.. يقرأ من ورقة ويرفع صوته ويترنم وأنا أراقب كل كلمة ينطقها وأحد بصري وأشحذ تركيزي ولكن.. لا فائدة. اللغة الملايوية لم تستسغها أذني. فاكتفيت بأني إنما حضرت لأنها جمعة. نعم، حسبي هذا. لكن خيالات النفس الأمّارة دائمة الحركة.. تموج في عوالم الشعور كأمواج البحر بين خفض وارتفاع.. بين همس ووشوشة وبين هدير وصخب. أخذتني إلى البعيد.. حيث المرح وتعويض أيام الحرمان وإكمال النقص الذي أشعر به في حياتي العاطفية إلى حيث المشي على رمال الشاطئ وأيادينا مشتبكة ونوارس البحر تحوم فوقنا كأنها تظن فينا قاربًا للحب يتراقص فوق الرمال أو جزيرة نائية لا يسكنها أحد غير الحب والأحلام.

بعد الصلاة ووسط الحشود المتدافعة وحرارة الأرضية الصاعدة ومراوح الساحة الكبيرة تدفع بالهواء الحار في وجوهنا.. قررت الذهاب للقاء.

بدّلتُ في البيت ملابسي سريعًا.. حيث علمتني حياة العزوبية أن أصل إلى مبتغاي بكل سهولة.. فلا أعلق أشيائي على الجدران أو الخزانات وإنما أنثرها على الأرض، فأقفز على اللون الأبيض، فهي إما فنيلة أو سروالًا أو ثوبًا، وهكذا فأنا لا أقضي الوقت في التفكير الطويل! كان أكثر ما يدفعني للخروج هو الشفقة على حالها.. لقد عرفت قصتها كاملة.. عرفت كيف كانت تعيش قصة حب فاشلة.. حبًّا أعطاها صورةً سيئة عن الرجال. فقبلتْ بالزواج من رجل متزوج لا حبًّا في الزواج، ولكن تشفّيًا بحبيبها الذي تزوج بغيرها، ونكث عهده ووعده إياها بالزواج منها. وعرفتُ كيف تعيش الآن مع زوج عاجز لا يشبع لها رغبة.. تتزيّن لها وتتجمّل وهو منصرف عنها بالكلِّيَّة.. لا يجد فيها ما يجده عند الصّينيّات! يجمعهما سقف واحد طوال اليوم، وبين قلبيهما من الغربة بوْنًا شاسعًا كما بين السماء والأرض! لقد كانت مقهورة طوال الوقت.. لماذا يفعل بابنة الناس هذا؟ هل هذا فعل مُحِب؟ نفَذتْ جعبتها من كل حيل الإغراء الأنثوي.. فذبلت وغاض ماء حسنها وأوشكت على الانزلاق. كنت أجمع كل هذا في داخلي، وأقدّر لو أن فرصة الخروج مع فتاة تمكنت لخبيث لما كانت حالاتها النفسية ستردعه عن

فعل شيء! لقد كنت أخاف عليها أشد من أبيها وأمها.. كنتُ في نظرها الحبيب الملهم.. وكانت في نظري النّقيّة المعذّبة. لقد كنت في نظرها كل شيء في الحقيقة، وكانت في نظري ضحيّة.. ضحيّة من؟ ضحيّة عائلتها؟ أم ضحيّة زوجها؟ أم ضحيّة التعليم الفاشل الذي لا يناقش في مناهجه مثل هذه الأمور حتى يشب مفهوم الأسرة القويم مكينًا، فيستقر في النفوس مهيبًا جليلا.

فتاة في العشرين.. تتوهج حيويّة.. يبرق جسمها لذة.. أنيقة في كل شيء.. جوالها حقيبتها.. لونها السُّكّري كأنها أوراق شِعر أو سلاسل الذهب كقصائد البحتري.. طويلة مربربة كمعلّقة! لو علم البلاغيون بها لصاغوا منها أبلغ الكلام وأعذب الرُّقى وأنفذ السحر وألغوا المعلقات العشر! عزيزة نفس كملك من ملوك الدنيا.. كريمة لأبعد الحدود.. لو أردت تشبيهها بفاكهة من الفواكه الشهيّة.. كي نترك للخيال أيضًا دوره في تطعُّمِ الأشياء في حين تعجز اللغة العادية عن نقل الطّعوم والروائح إلى مدارك الحسّ، لشبهتها بعنقود عنب!

أجل، إنها عنقود عنب يمشي على الأرض.. يرقص.. يجري.. يقفز.. يقف لافتًا بذهول. عنقود عنب.. شفتاها.. خدودها.. أناملها..

نهودها.. أردافها.. بطنها.. بل حتى قوامها الفارع مُسكِر يذهل القلب عن مكانه.. فيجعله يترنّح بين الضلوع يوشك على السقوط.

وضعتْ يدي في يدها، فما الدِّيباجُ الخُسْرواينُّ وما الوَشْيُ المُنَمنم؟!

ونظرتْ إلى عينيّ، فما كتابُ السماءِ المفتوح وما غابات النخيل؟!

وتكلّمتْ فما صوتُ فيروز وهي تُغني: أعطني النّاي وغنّي؟! إن صوتها متناسق في إيقاعه وجرسه.. متناسق في ترجيعه وصداه.. متناسق يناسب كل حالة من حالات اللذة والألم الكامنيْن في كل نفس.

علّمتني في الحديقة كيف ألعب كرة الرّيشة.. وضعت يدي بلطف على المضرب فطار إلى أنفي ما خلف أذنيها من عطر.. فضغطتُ على يدها وقلت: رائحةُ مطر آه لو تعلمين أيّ حزنٍ يبعث المطر، وكيف يشعر الوحيد بالضياع؟ فهربتْ مني إلى ربوة صغيرة ضاحكة من بعيد: هيي أنا هنا. كنت واقفًا جوار مجموعة من النخيل نخيل الزيت، وأشجار جوز الهند الطويلة الارتفاع.. ولم أشعر إلا وحبّة جوز هندي بحجم جمجمة عملاقة تسقط باتجاهي.. سلم الله فانزاحت إلى كتفي.. فاسودّت الدنيا بعينيّ.. تحركت بلا إرادة إلى الأمام بمقدار بوصة.. هاربا أنظر إلى الأعلى.. فإذا قرد صغير منحشر بين الأغصان المفلطحة يعبث لا

يبالي.. تألمت قليلًا.. فأسرعتْ إليّ واعتنقتني وأخذتْ تتحسّس كتفي وتضحك.. حتى القرود يرفسونك؟! قالت وهي تهرب إلى البعيد ثانية وهي تضحك.. لكني هذه المرة قررتُ أن أريها كيف تكون السرعة الحقيقية، فكأنما أوتيتُ قفزةَ الصّوفيّ! وإذا بي عند رأسها فصاحت: "أستسلم أستسلم خلاص". ولقفزة الصوفي هذه قصة عجيبة! كنت مرة في منقطة "العدين" من محافظات اليمن الجميلة، وكان في تلك المنطقة جبل على جزء من ناصيته آثار قدمين عملاقين لإنسان زعموه: الوليّ الرّفاعيّ، وكان يتحلّى بكثير من الكرامات كما يحكون.. وكان من تلك الكرامات أنه قفز من ذلك الجبل إلى الحرم المكيّ قفزةً واحدة فكنت أقول لهم: صحيح، فالرّفاعيّ جدّي من جهة أمّي!

صلينا العصر معًا.. وبعد الصلاة شرعتُ أحكي لها قصة.. لكنّ سحابةً قاتمةً كانت تعلو جبينها على غير العادة! كان الجوال في يديها وتكتب بكلتا يديها بسرعة. قرّ في نفسي أن ثمة خطب ما. قالت: أهلي يسألون عني ولكن لا عليك منهم. فكرتُ قليلًا ثم توجهتُ إلى عينيها.. أنظر في حزن وأتأمل! قلت لها هاتي السيجارة. فأخرجتها وقالت: هديتي إليك.. فأخرجتُ لها: عطرا فاخرًا. قلت لها: أفرح لو تقبلين مني هذه القارورة. كانت لا تزال ظلال من تلك السحابة من الحزن تعلوها!

فقررنا العودة! كان في الجهة المقابلة زوجها قد استيقظ من النوم.. جائعًا لا يجد أحدًا في البيت غير أمّه العجوز.

عاد إلى غرفة النوم كسولًا.. ينظر صورته في التّسريحة يجول بعينه ويتحسس بأنفه كالكلب يبحث عن أي أثر غريب. مدّ يده إلى عود الآذان بتثاقل بلل العود بفمه ثم أخذ يدير العود في أذنه اليمنى ثم يخرج العود متأملًا فيما علق في القطنة ثم يبلل العود بفمه ثانية ويدخله في أذنه اليسرى محدّقًا في الساعة وأصوات الشارع تترامى إليه بوضوح. خرج إلى الصالة ثانية كانت الثالثة عصرًا.. جلس على كرسي متثائبًا تذكر أنه لم يصلّ الجمعة، فمشى إلى الحمّام، وأصداء أنفاسه تتصاعد وتتلاشى في أرجاء الصالة.. أين ذهبت هذه الجنيّة؟ تهمس شفتاه بتثاقل وهو يغلق الباب.

قالت: نعم، يريد مني العودة. انطلقنا إلى السيارة بين تلك الغابة والأشجار الباسقة والهواء الذي يهب من جهة البحيرة. كانت يدي في يدها الرطبة حتى وصلنا إلى السيارة. هكذا هي الحياة.. تمنح وتأخذ.. إنها دوّامة مستمرة لا تتوقف.. تتغير وتتحول.. يوم لك ويوم عليك. قالت: حرمونا من أجمل اللحظات. تحركت السيارة وتركنا الحديقة خلفنا تئنّ شوقًا وشفقةً على حبّنا من العالم. إلى البيت اتجهنا.. كانت الطرق

مزدحمة بعض الشيء.. أنا أعرفها قلت لها: عينك في عيني. فنظرت باسمة ثم أشاحت بوجهها بعيدًا. أخذتُ أهوّن عليها وألطّف الجوّ.. وأنا في مثل هذه المواقف المرتجلة أدخل فيما يشبه الضباب.. يتضبَّبُ عقلي.. تتضبَّب الكلمات.. تتضبَّب شفتي وأجنحة خيالاتي.. جذبتها إليَّ فانجذبتْ بهدوء فقبّلتها وكأني وضعت في تلك القبلة روحي. لم نكن نخطط عند لقائنا لأي شيء.. لم نكن نخرج ورقة وقلم ونخطط أين سنلتقي وفي أي يوم وفي أي ساعة.. كنا نرتجلُ اللقاءات.. نندفع للاتصال دون تفكير.. نقرر دون تفكير.. نحبّ بعضنا دون تفكير.. كنا نبكي دون تفكير.. لماذا تعاملنا الدنيا بهذه الطريقة؟ كنت أحيانا أقول: لو أني متُّ وتخلصت من هذا العذاب أما كان أفضل؟ فأستغفر الله وأعود لرشدي وأقول: لابد أن لله حكمة في كل شيء، حتى لو ندر السبب. قالت: لا توقفني عند البيت بل عند إحدى المولات بالقرب من البيت..

- هل ستدخل معي؟
- أخاف عليكِ

كانت حزينة للغاية فأنا أعرفها مجنونة.. ترقص في السيارة وتخرج رأسها من النافذة وتصرخ.. وعند الإشارة لو رأت طفلا في السيارة الأمامية

تؤشر بيديها وتضحك.. قالت: ادخل معي.. على الأقل نتغدّى. كان المول ضخمًا بأربعة طوابق.. رحبًا ووسيعًا.. تلقفتنا البرودة برودة المكيّفات عند البوابة.. يا للروعة! كنت أتركها تمشي أمامي.. يا لجسمها البضّ.. يا لمشيتها التي تطيّر العقل!! بعد أن تناولنا الهمبرجر.. تفتّحت عروقي فتدفقت الدماء وشعرت بحيوية ونشاط.. شد ذلك من عزمي فأردت أن أقفز عليها فأرفسها! لكن كان المكان رسميًّا شبه مغلق.. قالت: تعال تعرّف على الطابق الثاني.. أخذنا نصعد الطوابق ونتحدث وقلبي.. قالت: يوجد هنا سينما.. فلم أصدق.. أنا أحب السينما. قالت: بلى يوجد. فأخذتني إليه. نظرت إليّ ونظرت إليها.. ماذا نفعل؟ نحن مجنونان بالفعل! حجزنا لمشاهدة فلم.. فلم رعب! ألم أقل أننا عاشقان مجنونان! هل يمكن هذا؟ فلم رعب ونحن في أول الغرام؟ ألا فيلمًا رومانسيًا؟ دخلنا في الظلام وأخذنا مقاعدنا في الأخير.. يا لها من شاشة عملاقة ومكبّرات صوت وبهو مهيب.. ومقاعد جديدة. أول ما استلقينا على الكراسي والهواء البارد يهب علينا تنفسنا الصّعداء. يا لله كم هي رائعة هذه السينما! وبدون تفكير التصقت شفتانا وأخذت أناملنا تنقر بعضها بلطف.. لأكثر من ساعتين.. ونحن في عالم غير العالم.. ليس غير اللذة.. ليس غيرها سيدة الموقف. لأكثر من ساعتين ونحن ملتصقان.. كانت لهمساتنا رغبة.. كان لشهقاتنا حكاية.. لم

نصدق أن الوقت يمكن أن يخذل حبيبين، فينقضي بهذه السرعة! لقد تعلّقتُ بها.. سَكِرتُ بها.. أحببتها من أعماق قلبي.. إنها في عيني أنقى من ماء الغمام.. أنقى من الطفولة.. بريئة غير مذنبة.. زوجها المذنب.. عائلتها المذنب.. مجتمعنا المذنب.. أما نحن فحبيبان لا تجمعنا بهارج الدنيا ولا تقاليدها ولا عاداتها بل الحب الصّافي وفطرة الحب النقيّة.. ما أجملها! وما أجمل حبّها! كم هو الحب نعمة.. لم أتركها إلا وابتسامة الرّضى تعلو محيّاها.. آه ما أروع الحبّ!

إننا من غير حبٍّ

كالذي يستمطرُ النيرانَ ماءْ

كالرحيل بلا دليلٍ أو رجاءْ

كالصباحِ بلا ضياءْ

إنَّهُ شوقٌ إلى اللاشيءِ.. شيءٌ غامضٌ يُدعى الحنينْ

إنه ركضٌ إلى المجهولِ

لولا الحبُّ؛ ضربًا من جنونْ

حدِّثيني ياشفاهَ النَّاي

لولا نفحةُ الله التي في الرُّوحِ تسري

من نكون؟

ماليزيا

أغسطس 2022

البحر يتكلم

على شاطئ البحر.. والموجُ الأزرقُ يزأر في أذنيّ، وخواطر نسائم البحر ترتطم في وجهي.. يتوهج في داخلي الزمان.. ويستعيد وعيه.. ترفرف أجنحة الخيال، فتمر أمام عينيَ الكثيرُ من المواقف المختلفة.. مضحكةً مبكية. يراودني المستقبل بفتوحاته التكنلوجية، ومتغيرات الظروف، وأشكال الناس، والمكان الذي سيوصلني إليه قلمي.. إلى وطني بعد غياب طويل.. حيث الشوارعُ المرصوفة بانتظام.. ومحطات القطار الحديثة.. والأبراج التي تناطح السحاب.. والمدارس والمكتبات من هنا ومن هناك تقتحم.. حتى القرى والأرياف.. لا حرب ولا سلاح.. الحب والسلام فقط.

لكن سلطان الماضي يقول: أنا هنا!

فيشدني إلى هناك.. إلى مكة المكرمة..

بدأ البحر يقرب مني.. بدأ يزفر.. البحر الأفق الواسع من الدهشة والسحر.

ولكن لماذا هاجر أبي إلى مكة؟ دائما تتساءل نفسي!

- أما كانت العربية السعيدة خيرا له ولي؟
- لا؛ ليس الأمر بهذه السهولة.. الرحيلُ قدرُ الله مكتوب علينا نحن اليمنيين خاصة.. ولا أحد يملك أن يفرّ من قدره. من قديم.. من قديم.. وقوافل الهجرات لا تتوقف.. إلى شمال الجزيرة العربية الشام وفلسطين والعراق.. إلى مصر.. إلى القرن الأفريقي.. إلى المغرب العربي.. إلى الصحراء إلى السواحل.. إما للتجارة وإما لبناء الممالك والعمران..

نُخلق ونحن نحمل جينات السفر!

أهي لعنة سيل العَرِم يوم انجرفت على يديه الجنات والوديان.. وانطفأت في الأجساد الأرواح.. وفرَّ من بقيَ إلى الشتات؟ ظلت في أصلابنا نتوارثها جيلا بعد جيل؟

ذلك اليوم؟ وهل يُنسى ذلك اليوم؟

يوم حملنا ما استطعنا حمله من متاع.. وهدير السيل يرجُّ الكون.. يلتهم السكينة والطمأنينة.. غضبٌ كظلمات البحر.. يغشى العيون والنفوس.. خرجنا وأطيافُ الموت تلاحقنا.. تحوم حولنا، وتدخل من بيننا، وتطير إلى الأعلى، وتُصوِّتُ بصوتٍ منكرٍ كأنها التَّنانين، ثمَّ تهبط علينا كالصاعقة!

نتلمّس بخطانا الأرض.. نلهج بما في صحفِ إبراهيم من تسابيح وأدعية.. نحثُّ السير.. تدفعنا الريحُ بيدٍ غضوب، وتستقبلنا بوجه كالح.. إلى الأمام إلى الأمام كأننا في معسكر تدريبيٍّ.. علينا كل صباح أن نستيقظ لنواصل رحلة الألم: إلى الأمام إلى الأمام.

نمشي.. ونمشي.. ونمشي..

نذرع الصحراء.. الصحراء الشَّاسعة.. يا إلهي ما الصحراء؟

لقد كنا في مواسم الفن والربيع.

في الخضرة في النضار.. في غابات من الكروم.. في عرائش من البن والورد.

الصحراء الجانبُ الغامضُ من الحياة!

علاماتُ الاستفهام والتعجب في كتاب الأرض!

الجانبُ المقفرُ.. الذي يُجسِّد بكل صدقٍ البشريةَ المقطوعة عن الله!

البدائية الوحشيّة.. أو الأميّة الفاقعة الصفرة. الفناء الذي لا يُشمُّ منه أي رائحة للأمل!

الصحراء بقايا من أشجار قاحلة.. وكومة من زرائب سامة سوداء ملقاة هنا وهناك.. كأنها ملاعق على مائدة العفاريت.. مرتفعات من كثبان متنقِّلة.. منخفضات وخبوت.. طرق تصلح للسير.. ومنعطفات على شكل كمائن مغطاة بالرمال.. تغريك ملاسة رمالها.. لكنها كهوةٍ سحيقةٍ بلا قرار.

صوتُ الرياح يرنّ في الآذان.. ترتفع نبراته أحيانًا كأنه منذرٌ بكارثة.. كخطيب يحشد كل طاقاته للإقناع.. وترتخي نبراته أحيانا فيغدو كهمس الغواني.

كانت القافلة الملكية ترتدي أفخم الملابس.. تتخللها الغلمان من فارس والخدم بيض الوجوه.

كان في القافلة قائد جيش.. طويل.. قوي البنية.. وضاح الجبين.. يوزع الجنود ويتفقد القافلة.. كلما قمت من النوم وجدته مستيقظا يشب النار جوار خيله المشقَّر.. كأنه لا يعرف النوم!

وكانت هناك خيام عديدة عندما نعرّس في مكان.. تتخذ الخيام مكانا واسعا من الأرض.. ترصف على أشكال دائرية.. تحيط بخيام الناس والخيول والمواشي والأمتعة.

الخيمة الزرقاء كانت للوزراء.. على مرمى بصر منها.. خيمة خضراء للتجار.. وخيمة سكَّريّة اللون لشيخ القبيلة.

كان شيخ القبيلة أحد الأقيال الشجعان.. الذين تقدمت بهم السّن وحنّكتهم التجارب وأنضجتهم القراءة في النجوم والفلسفة..

كان عالما كثيرا ما يُرجع إليه في مسائل الدين والحرب

كنا قد مشينا على مهل..

تحملنا هضبة ويهبط بنا منخفض.. تلتفُّ من حولنا الرمال كالأفعى الصفراء.. آثار أقدام لحيوانات عملاقة وآثار أقدام لثعابين وآثار لأقدام غريبة.. متناثرة على امتداد الطريق.. كأنها وشم على ذراع الصحراء!

تُسْلمنا مراحل الطريق إلى اللاانتهاء.

كان هاتفٌ علويٌّ يتنزّل كلما قرَّرنا المبيت في مكان: "لا يزال الراكبُ حتى يُؤمر" فنعلم أنه لم يحن بعد وضع الرّحال. فنواصل السير.

نمشي.. ونمشي.. ونمشي ..

كانت الرحلة على رغم الألم.. تتملَّكنا فيها لذة روحية.. كأننا في صلاة!

يوم أن رأينا الطيور تُحلِّق من بعيد.. ترامى إلى سمعي ما كانت تتداوله القافلة؛ كنت طفلًا يومها أشعر بالأمان.. لا أدري ما السبب؟ ربما استوحت روحي ذلك من تلك الوجوه المطمئنة!

نعم؛ ربما لهذا السبب.

: "سنتجه إلى الشمال"

كان الصوت مهيبًا كصوت الملوك!

- إلى الشمال؟
- كأني سمعتُ...
- نعم.. نعم؛ إلى الشمال.

تداخلت على إثره الأصوات في هدوء.. انحرف مسارُ القافلة إلى حيث أشار الصوت الملكيّ.

كانت الجِمال تحمل الكثيرَ من الخيام والكتبِ والحرير..

استمر الرحيل..

لكن صورةَ العربيةَ السعيدة كانت تتلألأ من ورائنا.. تغرد ملاعبها.. لا تفارقنا مناظر جبالها وقراها أبدًا!

آآآآه!

إن الرحيل إلى الشتات موت أشد من الموت. نمرُّ مناطق لا أرواح فيها، ولا دلائلَ لعيشٍ من قبل ولا حتى قبور.. شيء لا يطمئن!

لما دنونا من تلك الطيور التي كانت ترى من بعيد كأنها تحوم فوق ماء.. كانت تقف في انتظارنا امرأة وقور.. ترتدي ملابس هي نفسها الملابس التي كانت ترتديها نساء القبيلة!

أنست المرأة بنا وأنسنا بها.. كان وجهها مباركا.. لكنه كان يبدو مجهدًا قليلًا يتصبب عرقًا.. كأنها تستنجد.. أنهكها الجوع والتعب.. انفرج الفوج البشري المتجمّع أمامها.. كانفراج البحر إلى طريقين يابسين!

وتقدم خلالهما صاحبُ الصوت الملكيّ.. قالت أنا هاجر أيها الشيخ وهذا ابني إسماعيل.

فانزاح التعب، وانشرحت الصدور، وعلا ثغاء الأغنام، وصهيل الخيل، وتلمسنا الغبار الذي كان على ملابسنا فلم نجده!

كأن غيمة خضراء من السماء غسلتنا.. أو كأننا بُدِّلنا ملابس جديدة.

تعانق الناس.. هنأ بعضهم بعضا بالخير..

لا؛ لم تكن مصادفة.. إنما كانت امتحانا صعبًا أراد الله من خلاله اصطفاء قومٍ لدينه الحنيف، وعمارة مكة المكرمة.. تمهيدا للرسالة الخاتمة.

إيييه! وعوداً من هناك إلى هنا!!

ها هو بقيَّةُ ملوك يذرع الأرض، وقد تغير الزمان وتنكّر الإخوان.. وعمّ التمزق.

مكة التي عمرناها يطردنا عنها من هم منَّا؟

انسدل الستار.. رمشت عيناي لا تكادان تصدقان!

كأني عدت من نافذة إلى حيث أنا الآن.. على شاطئ البحر!

ها أنذا أرتطم على الأرض بقوة!

يا للغرابة!!

كل شيء كان أمام البحر يتكلم!

تمتزج أصوات التجارب الإنسانية وتتداخل في لحظة تأمل طويل.

وعلى امتداد نظري.. في تلك المسافة بين البحر والسحب.. كانت تركض خيول وتلوح مسارح وتلمع أزياء وتغني جداول وتطير حقول.. تتحدث أمي إلى جارتها.. يعود أبي من زيارة.. إخوتي يتدربون على الرماية.. أخواتي على بئر الماء.. وأنا وابن خالتي فواز على شجرة قات.. نشذّب ونلقّط قات التخزينة ونتحدث عن أغنية عاطفية لأيوب طارش ونضحك كثيرا..

مشاهد متداخلة كلها تنساب من الذاكرة إلى تلك المسافة بين البحر وبين السحب.. وأنا لا أزال أجلس على بساط فوق العشب..

أشاهد وأتعجّب مما يوحي إليَّ به البحر!! مسلمًا إليه القياد.

أمامي علب صغيرة.. علبة للأكواب.. وصينيّة فيها تمر ومكسّرات.. وثلاجة شاي ودلة قهوة كأنهما جاريتان زاهيتان من بلدان مختلفة تتفتقان صبوة..

والبحر هو البحر..

ذلك الصوت الملكيّ المهيب.. يخترق الشعور.. ويرجُّ الأعماق.. ويعيد البرمجة أو يغربل الأفكار!

تأخذني نوبات إلى الماضي.. وكأني طيفٌ لشخصٍ يحلم!

من هذا الذي يحلم بي؟

أأنا طيفٌ لحلمِ رجلِ طيبٍ أم لامرأة شريرة؟!

ربما كنتُ طيفًا لحلم رجلٍ من قبيلة جُرْهم.. لا يزال يحلم؟

ولم لا؟

ألسنا في الحلم نرى أننا نطوف الأرض ونتجاوز الزمان؟

أم يا ترى هلوسات بسبب القراءة؟

كانوا في القرية قديما يقولون لي: انتبه! القراءة تسبب الجنون!

ربما صحيح.. القراءة الطويلة في الكتب كثيرا ما تسبب العقم الفكري!

أفكار بحاجة إلى توقف.. وأفكار إلى مناقشة وفرز.. معلومة تصلح أن تكون في الملف الفلاني.. وتلك المعلومة نضعها في الملف الفلاني.. تلك علينا أن نسحب عليها السيفون.. تلك تستحق التقديم.. تلك التأخير بها أولى.

لا؛ ليس صحيحًا البتَّة!

القراءة لا تسلم إلا إلى الخير.

لكنني بلا مملكة.. لا عامل يساعدني على تنظيم كل حياتي.. غير البحر.

البحر؟

البحر قارئ ماهر.. يقرأ ما وراء السطور.. يسبر العمق.. صبور على التحرِّي.. يتسرب إليك عن طريق الحدس.. يتخاطر معك.. يجذبك إليه ذلك الصدى المهيب.

البحر كتلة موسيقى.. قطعة إحساس..

شيءٌ كبير كإله. مقدَّر على الأفكار والأخيلة.. متطبّع على الكتابة والغناء.

كانت البيوتات في الحجون شعبية، وتزخر بالطابع الحجازي القديم.. تعج بالأطفال والأغنام وحلوى اللبنيَّة.

خلقتُ على جبل الحجون.. على هدير المزمار والمجسّات العذبة:

زُرْ من تحبُّ ودع مقالةَ حاسدِ

ليسَ الحسودُ على الهوى بمساعدِ

في مدرسةٍ جوار الدفاع المدني.. أتذكر.. كانت أمي تصنع لي شطيرة من الجبن وأحمل حقيبتي وأخرج من البيت.. كان بيتنا على جبل.. تمتد إلى الشارع منه سلالم حجرية.. أنطلق.. أستنشق الهواء.. أركض.. أسابق الطير.

درست في تلك المدرسة حتى الصف الثالث الابتدائي.

حدَّقتُ في عين البحر قائلًا:

لكنني يمنيٌّ يا بحرٌ.. أنا يمنيٌّ.. اليمنُ عشقي وقصيدتي الخالدة..

رغم أننا لا نزال كيمنيين بلا اطمئنان..

كأننا في حرب مع خزاعة!

- ولكن ألم تكن خزاعة منَّا؟
- طبعًا وهل كانت الجزيرة العربية إلا بيتًا واحدًا كبيرًا؟

شيء ما يطردنا عن البقاء. رحيل دائم إلى لا منتهى.

كبر إسماعيل عليه السلام دِينًا ألمعيًّا.. فتزوج منَّا حيث التديُّنُ فطرةٌ، والألمعيّةُ سجيّة.

ومرّت الأيام!

زارهُ أبوه مرة.. كان من أجمل ما ترى العين جلالًا وحكمة.. إبراهيم خليل الله!

ذاع خبر وصوله.. تحركت الخيام وأجلب الناس واحتشدت الخيول بفرسانها.. وجاءت الأطفال بالحليب إليه.. وتعالى أصوات الأقيال: رحبًا رحبًا وسعةً سعةً بك يا خليل الله

ومن المعلوم أن قوافل التجارة لم تكن لتتوقف.. دائمة التردد على الشام والعراق وفلسطين واليمن..

لقد زخرت مكة بالعمران والحياة.

وغمرها تجار الهند والصين بالبضائع!

تهلل وجه خليل الله بالبِشر. كان لسانه يلهج بذكر الله وحمده: لك الحمد يا الله على إجابة دعائي.. إنهم خير أفئدة حقًا.. وهو يرى أمامه جنتين من سماحة وكرم.

دعا للجميع بالخير والبركة. قال لي: بوركت أيها القيل الحنيف.

كانت جبال مكة تقف وراءه بخشوع.. كأنما كانت تتبع صلاة قلبه.. مرة ينبض قلبه بالشوق إلى الله، فتشرق الجبال في الليل كأنها الشمس..

ومرة ينبض قلبه عزةً لله.. كأنها تزداد ارتفاعًا..

ومرة كأنما يُسمع من تلك الجبال حفيفُ أجنحة

هب النسيم رخيًا من كل مكان كأنها الوفود قدمت لأداء العمرة مع خليل الله.

ومرت أيام وأيام:

أبى الشيطان فيها أن تنتقل الجنتين من العربية السعيدة إلى الصحراء القاحلة فأعمل يده، وأشعل فتيل الفتنة بين الإخوة. فتلوثت جدران الكعبة بالدماء.. وأصبح في كل بيت صوت نائحة.

كأن لم يكن بين الحجون إلى الصّفا

أنيسٌ ولم يسمر بمكةَ سامرُ

لا يزال هذا الشعر من (جرهم) نابضًا في مسامعنا كلما اصطكت في مسامعنا كلمة طائشة كالرصاصة: أجنبيّ!

المُقامةُ السُّكَّريَّة

حدّثني صديقي من قريتي المَسَانح وكنا في سَمَرِ "قاتْ" فقال: ذهبتْ بي الأيام بعيدا عن بلاد العربْ.. وسط ضجيج وصخب.. منذ آذان الصباح.. ارتحلتُ الرّياح، وركبت الأمواج وخضت الفيافي والفجاج.. واتجهت نحو الشرقْ، كسهم من بَرقْ، فوصلتُ بلدةً نائيةً وقت الأصيلْ، مسوَّرةً بالنخيلْ، معبّدةً برمال الشطآن الناعمة، كأنها في حضن الغمام نائمة. وفيها أشجارُ فواكهٍ غريبةٍ لم ترَ عيني مثلها في حياتي قَط.. فواكهَ مكوّرةٍ كظهر الجنادب لها مخالبُ قِط، وأنياب وأسنانْ، ثمرتها تشبه خِصية الشيطانْ! يأكلها الناس فتضيء وجوههم وتتسع أشداقهم، وتطول أعناقهم! استحوذتُ على قطعٍ منها ذات يومٍ على استحياء من أن يراني أحد من أهل القرية! فانتحيتُ جانبًا من الطريقْ، حيث لا رفيق

لي ولا صديقْ، فأدرتُ رأسي يمينًا وشمالا فتوكلتُ على الله تعالى، وحبستُ الزفير والشهيقْ، فوجدتُ لها طعمًا شهيًّا.. وطيفًا في خيالي قُرمزيّا، وإذا بي أشعر بما يدفعني على الوثبْ، وتسلق الجدران والشدِّ والجذب.

ووجدتُ في البلدةِ مسلمين على الفطرة، لكنهم فطس الأنوف، قصار القامة، يهذرمون بكلام غير مفهوم، يعيشون على الكفاف بيد أن العجب كل العجب فيما يملكون من مساجد في منتهى البذخ، وجوامع في قمة الترف! فاستغربت! ثم إني يا صديقي ذاتَ جمعةٍ والمطر سكّاب، وقد أخذني الشوق للأحباب، شدَّني إلى مسجدٍ عظيمْ، صوتٌ مألوفٌ كأني أعرفه من قديمْ! قلتُ في نفسي: سُحْنة هذا الخطيب ليست غريبة عني! فدخلتُ المسجد، حتى إذا دنوتُ منه، حدّقتُ وأطلتُ التحديق! وإذا بي أقول بصوتٍ خافتْ: رَفَسَتني بقرُ الهندوس إن لم يكن هو! إنه هو ابنُ سُكّرة! أجل أجل إنه هو! هل أكذّبُ عيني يا عالم؟ وهل تخفى عني ألاعيبه وحيله؟ ولكن ما شأنُهُ وشأنُ الخطبة والخطابة؟ وما هو إلا من أهل المجانة والصبابة؟! لعلّ الله هداه! أمعقول؟ ولم لا؟ فلله في خلقه شؤون!

وما بين تكذيب في نفسي وتصديقْ، وتقميش وتحقيقْ، وتبرير وتلفيق.. أثبتُ التُّهمةَ حينًا وأدفعُها، وأنزل الشُّبهةَ وَهْنًا وأرفعُها، قرّرتُ أن أقعد لأستمِع.. علِّي أفيد وأنتفِعْ، فاستمعتُ إليه كطالب دنيا شحيحْ، وإذا به يزبد ويصيح: (اللهمَّ إنها الجمعةُ الجامعة، والنّفحة العليَّة، والرّوضة اليانعة، والنّسمةُ الزّكيّة. أطلّت يا ربُّ علينا في أوّلِ العامْ، كما تطلّ البدورُ الزاهياتُ على الأنامْ. تستشرف أنوراها القلوبْ، كما يستشرف الصَّبُّ رياحَ الجنوبْ.. وداعةٌ ورضى، وسكينة وهدى، فيها لآدم أسجدتَ الملائكة وعلّمته الأسماء، وأسكنته بحبوحة النعيمِ والهناءْ وحين أبى السجودَ إبليسُ اللعينْ، وقال: أنظرني! فكان من المنظرين، فوسوس لآدمَ فعصاكْ، ثم اعتراهُ النّدمُ، فناجاكْ، قلتَ: أنا التّوّابْ، فقبلتَهُ وألبستهُ الثّوابْ. وفيها فضائلُ سورةِ الكهفِ ترفع الدَّرجاتْ وتحطُّ عن كواهلنا السّيئاتْ، التي لا أبالكَ تنقضُ الظَّهرْ، وتعقد على النَّواصي الفقرْ، فإذا أنت لَقيً في كلّ دربْ، كأنك مقبورٌ في جُحر ضبّ! فعند قصّة أهلِ الكهف تُحبس الأنفاسْ، وتنصت الأرواحْ، ويجمد الإحساسْ. أولئك الفتية من أرباب القصرْ، ملءُ أبشارهم إيمانْ، يرفضون الكفرْ ولو كان مرصَّعًا بالدُّر، ويعبدون الواحد الأحدْ، ولو كانوا في القيود والزَّرَدْ.

وفيها من أعجب القصصْ، قصةُ موسى والخِضْرْ! لكم عانى موسى في سفره مِن غصصْ! فالخِضْر مرّةً يخترح السّفينة! ومرةّ في الغابِ يقتل

الغلامْ! ومرةً يبني جدارَ قومٍ بخلاء.. بدون أجرٍ أو ضغينة.. لم يُطعِموا الظَّعينةْ! دارت بموسى الأرضْ، فقال: لم تقدِر عَليَّ صَبرا، فقصَّ من أسرارهِ وعَرَّى، فقال موسى للغلام: قمْ وانهضْ. وفيها قصةُ الهُمامِ ذي القرنين! فؤادهُ رزين، وحكمه متينْ.. العدل عندهُ الوجودْ، والحق عندهُ الحياة. يسير جيشُهُ كالموج كالجبالْ، لا يرهب الملوك والأهوالْ، وحيثما حلَّتْ ركابُهُ تنبَّتتْ أشجارْ، وأقبلت بقمحها السنابلْ، فأشبع البطون، وطبَّبَ المحزونْ، ولقّن الـ يأجوجَ والـ مأجوجَ درسًا قاسيًا عبر الزمانْ، جزاء ما قد أسرفوا في القتل والطغيانْ، من أكلوا الحقوق وضيّعوا الأمانة، وأدبروا وأقبلوا بالإفك والخيانة، واغتصبوا وأحرقوا، ودمّروا وأتلفوا، فخفَّضوا الكرامْ، ورفّعوا الأنذالْ، فثار ذو القرنيْنْ، وجاء في شِعْبيْن، ومدَّ سّدًّا من برادة الحديد والنّيرانْ، سدًّا عظيمًا مانعًا، لا لم يدر يوما على الحسبانْ، لكنه تقدير ربٍّ قادرٍ حنّانْ، أن ينقذ الإنسانْ، بالعلم والإيمانْ، فحوصروا في السَّدِّ كالفئرانْ) .

أخذتني من موعظته رِعدة! وقد نزل كلام ابن سُكّرة من قلبي موضع التصديقْ، وقد وقر في نفسي أنَّ الله تاب عليهْ، وكيف لا يقبل الله من أسرع بالضراعة إليهْ؟

فها هو ذا مكانة عالية من الدين.. قد فتح الله أبواب العرفان واليقين. أجل لقد هداه الله ولولا ذلك لما رأيتُ الناس في المسجد ما بين باكٍ قد بلّت دموعُه ثيابَه، وبين ضاربٍ بيديه على رأسه يقول: اقتلوني اقتلوني، وبين منصرع يفحص الأرض بقدميه من شدة ما يلاقي من الوجد!!!

أجل إن الخطيب إذا كان صادقا مع الله، فإن الله يضع له القبول في قلوب الناس، فيتأثرون ويخشعون، وإلى الله ينيبون، فاستغفرتُ الله من سوء ظني وخيبة فراستي! وإذا ابن سكّرة يرمقني شزرا من على منبره الرفيعْ، فكأنها ترامت إلى سمعه خواطري، أو أنه قرأ ما يوسوسني به شيطاني! وإذا بنبرته تعلو وتعلو، فيقوم لها الناسُ بالتكبير والتهليل، كأنهم في غزوة لا في مسجد:

(وفي الجمعة أيها الطيبون ساعةٌ مجابةُ الدّعاءْ.. فيها تُفتَّحُ السَّماءْ.. كأنها أزهارُ روضةٍ غنَّاء، فتجوسُ في قلبك منها أصواتُ الهديل، وسواقي الأنهار وهواتفُ النخيلْ، فإذا دموع الرّجاءِ تنهلّ في وَجَلْ، وإذا أيادي الضَّراعةِ ترتفع بالأملْ، وإذا بخورُ المساجدِ يأسر الألبابْ ويفتح للهدى والرشاد ألف بابْ.. لا حكمَ فيها إلا للسّلامْ، والحب والوئامْ، وزيارة الأرحامْ.. رسالةُ التسامحْ والعفو والتصافح).

وبعد أن أنهى ابنُ سكَّرة خطبته، تداخل الناس في بعضهم! يتصافحون ويتعانقون حتى كادوا من حرارة الموقف أن يخنق بعضهم بعضا، فقلت: والله لابد أن أصل إلى الخطيب، ليسكن ما بقلبي من وجيبْ، ولكن هيهات هيهات! فقد قامت بين عيني جبال من الصفوف، وطال بي الوقوفْ، والناس يتسابقون ليأخذوا بركة المصافحة، واللثم والتقبيل والمسامحة، فلم أستطع إليه سبيلا، فخرجت من المسجد ذليلا، وأنا كلّي حسرةٌ بأنْ لم أتشرَّف بلقائه، وأضعتُ أمل الحصول على بركة دعائه.

ثم ارتحلت بيَ الأيام وتخطَّفتني الدروبْ، فمن عاملٍ في فندق إلى فرَّاشٍ في لوكندة ومن طبَّالٍ في حانةٍ إلى بائع كتبٍ في كشك حتى كانت ساعة الأصيلْ، والشمسُ توشك على الرّحيلْ، رأيت رجلًا متأبطا فتاتين فارعتين، ضمار البطون، تبدو عليهن ملامح أهل الصين، وإذا بابن سكّرة الخطيب.. مرتديًا قميصًا فارهًا عاريَ الصدر، يعضُّ على سيجارةٍ كوبية.. يترنَّم بالأشعار فرحًا مسرورا، فآليتُ على نفسي أن ألحقه فأفضحُهْ، وبوابل السِّباب أنضحُهْ، فدافعتُ الزحام ووطأتُ الأعناق، واعتذرت اعتذار أهل النِّفاقْ.. ما بين ساخطٍ مقهورْ، وما بين لاعنٍ معذورْ، وما إنْ وصلتُ إليه حتى أغلق في وجهي باب القطار، وهو

يرمقني بتلك النظرة الشّرّيرة.. يخرج لي لسانه.. باعثًا من النافذة بيته الشهير:

جاء الشتاء وعندي من حوائجهِ

سَبعٌ إذا القطرُ عن حاجاتنا حُبسا

كِنٌّ وكيسٌ وكانونٌ وكأسُ طَلا

بعد الكبابِ و..... وكِسا

.... ثمَّ علا صوت أنينِ القطار وغرق في الظلام أو.. طار!

ماليزيا

3 يناير 2020

دار بسمة للنشر الإلكتروني

دار مغربية، رقمية، تأسست في 2017

دار بسمة للنشر الإلكتروني من أهدافها مساعدة الشباب المغاربة والعرب على نشر إبداعاتهم، وإيصال أصواتهم وتغريداتهم إلى العالم كله، كما تطمح لاكتساح عالم النشر الإلكتروني في كل الأقطار العربية..

كما أننا –في محاولة منّا لتغذية شريان الثقافة– نسترشد بالضمير الحي من أجل نشر المحتوى الثمين، حاملين على كواهلنا رسالة التنوير الحقيقي، ومدركين كل الإدراك لقيمة القلم النبيلة، لذلك كنا حريصين على نشر كل ما هو قيّم. في دار بسمة للنشر الإلكتروني نساند المؤلفين وندعمهم لإيصال إبداعاتهم لملايينَ من القراء، ونرشدهم إلى آليات فنية تعينهم على تحسين أساليب الكتابة والإبداع. وتقريبا لهذه الغاية تقوم الدار بتنظيم مسابقات متعدّدة، والإشراف عليها مجانا من أجل اكتشاف المواهب الشابة التي تستحق أن تُنشرَ أعمالُها بينَ القرأَةِ والمثقفين، وذلك تشجيعا لهم على الاستمرارية في الكتابة الإبداع.

هـذا العمـل الإبـداعي برعايـة داربسـمة للنشـر الإلكترونـي
بشـــراكة مـــع جـــروب ملتقـــى الأقـــلام المُبدعـــة...

للاطلاع على الصفحة الرسمة لداربسمة للنشر الإلكتروني على الفيسبوك، اضغط على الأيقونة.

للاطلاع على جروب ملتقى الأقلام المبدعة على الفيســـبوك، اضـــغط علـــى الأيقونـــة.

المُحتَويَاتْ

استهلال.. 7

صباحيَّات 9

أثَرُ الفراشة 15

من وحي الصورة: النعامة 19

مناجاة قمر..!! 22

أين أنا؟.. 27

رسالة قصيرة.. 40

الموسيقى القاتلة!.. 44

ليلة.. لولا البعوضة!! 49
إليك أيّتها السّيّدة النّبيلة..!! 56
عاشقان في السّينما..... 61
صوت من عقيق 73
الشّاعر والأرض..... 75
الشَّبِيه بالناقة 78
"من العُدَيْن يا لله! يا لله بريح جلاب" 80
زيارة ملك! 92
في مطار الهند 101
قبس من وحي الذّكريات 106
درس في الكناية!! 113
من وحي الأربعين 119
رمضان يجي هو ورزقه 126
حكاية النِّخرة..... 133
العودة إلى الحياة ..!!..... 140
نزهة في الجنة..... 144
على كورنيش الدمام..... 156
صدفة خير من ألف ميعاد! 164

رسالة إلى السّيّد جان فالجان بطل رواية البؤساء لفيكتور هيجو .. 172
عاشقان في السّينما..... 178
البحر يتكلم..... 191
المُقامةُ السُّكَّريَّة..... 206

وكلا الأنغام والمعاني يسهمان في تلوين الحياة .. وتجديد الإنسان .. ورفع مستوى الذكاء الروحي والاجتماعي .. والإحساس بأهمية السلام والعيش بحب. لم يكن بيتهوفن رغم ظروفه الصحيّة وقسوة التجارب التي مرّ بها إلا ملاكًا موسيقيًا ينشد للمجتمع النور يكافح في النفس الرّعونةَ والقبح .. كي يغمر الجمالُ الأرضَ .. فلا أنانية ولا قطيعة.وكذلك كان كل شاعرٍ فيلسوف. كانت كألطف ما تكون من الأغصان رقّةً .. ورشاقةً .. والرّقّة في الطبع إنسانية تأسر القلوب .. والرّشاقة في الحركة تبعث على انتشاء النفوس. هجم عليَّ جمالها ذات صباح .. فانبجست من صخور قلبي اثنتا عشرة أغنية .. ومن جدران خيالاتي اثنتا عشرة حمامة .. والكثير من الروايات الحالمة. وكانت كل خليّة في جسمي تفرد أجنحتها للرياح كي تطير .. لقد كان هناك إحساسٌ مَّا بقدرتها على التحليق!

طارق السكري

Bassmabook
00212771814934